

عقبة بن نافع

من مشاهير أعلام المسلمين

عقبة بن نافع

يعتبر عقبة بن الفهري ^(١) من أكابر التابعين وأفاضلهم، فقد ولد قبل وفاة الرسول ﷺ بعام واحد، وكان من أعرف الناس بأحوال المغرب العربي، وكان قوي الإيمان بدينه، شديد الحماس لنشره، فكان يتخذ من من الفتوحات وسيلة لنشر الإسلام، وكان بالإضافة إلى ذلك قائداً قديراً، ساهم في فتوحات عمرو بن العاص الأولى في إفريقية، كما ساهم في فتوحات عبد الله بن سعد ^(٢).

كان والده من المسلمين الأوائل الذين جاهدوا في سبيل الله، فلم يكن غريباً أن يشب (عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهري) وحب الجهاد يجري في عروقه، وتمنى أن يكون أحد أبطال مكة وفرسانها، تعلم المبارزة، وتدريب مع الشباب المسلم على حمل السلاح، وازداد عقبة حباً واشتياًقاً للجهاد من سماعه لقصص البطولة التي قام بها المسلمون أثناء حروبهم ضد أعداء الإسلام، حكاها له ابن خالته (عمرو بن العاص).

(١) هو عقبة بن نافع القرشي الفهري، نائب إفريقية لمعاوية وليزيد، وهو الذي أنشأ القيروان وأسكنها الناس وكان ذا شجاعة، وحزم، وديانة، لم يصح له صحبة، شهد فتح مصر، واختط بها (١)، فقد أسند معاوية بن أبي سفيان قيادة حركة الفتح في إفريقية إلى هذا القائد الكبير الذي خلد التاريخ اسمه في ميدان الفتوحات، وكان عقبة قد شارك في غزو إفريقية منذ البداية مع عمرو بن العاص واكتسب في هذا الميدان خبرات واسعة، وكان عمرو بن العاص قد خلفه على برقة عند عودته إلى القسطنطينية، فظل فيها يدعو الناس إلى الإسلام.

(٢) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٣٣.

ولما بلغ عقبة مبلغ الشباب أصبح يجيد المبارزة وكل فنون الحرب والقتال، منتظرًا اللحظة المواتية ليدافع عن دين الله، وجاءت الفرصة عندما أسند الخليفة العادل (عمر بن الخطاب) فتح بعض بلاد الشام إلى عمرو بن العاص، وجعل عمرو (عقبة بن نافع) في مقدمة الجيش وهو لم يبلغ بعد سن العشرين، وكان عقبة عند حسن ظن عمرو بن العاص، فقد أظهر مقدرة بطولية على اختراق صفوف الأعداء، ونجح نجاحًا كبيرًا في أول امتحان له في الجهاد في سبيل الله.

وفي أثناء فتح عمرو بن العاص لمصر أظهر عقبة تفوقًا ملحوظًا، واستطاع بمهارته الحربية أن يساعد عمرو بن العاص في هزيمة الروم، وكان كل يوم يمر على عقبة يزداد حبًا للجهاد في سبيل الله، وشغفًا بنشر دين الإسلام في كل بقاع الأرض؛ حتى ينعم الناس بالأمن والعدل والرخاء، وظل عقبة بن نافع جنديًا في صفوف المجاهدين دون تمييز عن بقية الجنود، على الرغم من براعته في القتال وشجاعته التي ليس لها حدود في مقاتلة أعدائه، إلى أن كلفه عمرو بن العاص ذات يوم أن يتولى قيادة مجموعة محدودة من الجنود يسير بهم لفتح فزان (مجموعة الواحات الواقعة في الصحراء الكبرى شمال إفريقيا).

وانطلق عقبة إلى (فزان) وكله أمل ورجاء في النصر على أعدائه، وعندما وصل عقبة إليها دارت معارك عنيفة بين البربر والمسلمين أظهر فيها عقبة شجاعة نادرة حتى فرّ البربر من أمامه ورفعوا راية الاستسلام، وأراد عمرو بن العاص فتح إفريقية كلها، لكنه كان في حاجة إلى عدد كبير من الجنود، فبعث إلى الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يستأذنه في فتحها، لكن الخليفة عمر - رضي الله عنه - كان من رأيه الانتظار عدة سنوات حتى يرسخ المسلمون في مصر وتثبت إمارتهم ويزداد جيش المسلمين ويقوى

انتقل عقبة - رضي الله عنه - إلى برقة (منطقة في ليبيا) بأمر من عمرو بن العاص رضي الله عنه؛ لِيُعَلِّمَ المسلمين فيها أمور دينهم، وينشر الإسلام في هذه المنطقة، ومكث - رضي الله عنه - مخلصًا في نشر نور الإسلام، وتدعيم شعائره في نفوس الذين أقبلوا على تعلم لغة القرآن.. فأسلم على يديه كثير منهم، وأحبوه حتى استطاع عقبة أن يكتسب خبرة واسعة بكل أحوال البربر.

وتمر الأيام والسنون وعقبة يواصل جهاده في سبيل الله، حتى كانت سنة (٤٠هـ) وهي السنة التي تولى فيها معاوية بن أبي سفيان الخلافة، وعاد عمرو بن العاص واليًا على مصر، وحين أراد عمرو بن العاص أن يستكمل الفتوحات الإسلامية التي كان قد بدأها في برقة رأى أن خير من يقوم بهذه الفتوحات عقبة بن نافع؛ لإقامته بين البربر لسنوات عديدة، فأصبح من أكثر الناس معرفة بحياة البربر وعاداتهم وتقاليدهم.

وبدأ عقبة الجهاد في سبيل الله، ونشر الإسلام بين قبائل البربر، وكانت برقة آنذاك قد تغيرت معالمها بعد أن اعتنق أهلها الدين الإسلامي، وانتشرت المساجد في كل مكان فيها، وظل عقبة واليًا على برقة يدعو إلى الإسلام إلى أن جاءته رسالة من الخليفة يخبره فيها بأنه قد اختاره لفتح إفريقية.

وقد جاء إسناد قيادة الجيش الإسلامي إلى عقبة بن نافع خطوة موفقة في طريق فتح شمال إفريقيا كله، ذلك أنه لطول إقامته في برقة وزويلة وما حولها، منذ فتحها أيام عمرو بن العاص، أدرك أنه لكي يستقر الأمر للمسلمين في إفريقية ويكف أهلها عن الارتداد، فلا بد من بناء قاعدة ثابتة للمسلمين ينطلقون منها في غزواتهم، ويعودون إليها ويأمنون فيها على أهلهم وأموالهم، فلما أسند إليه معاوية بن أبي سفيان قيادة الفتوحات في إفريقية، أرسل إليه عشرة

آلاف فارس وانضم إليه من أسلم من البربر فكثر جمعه^(١)، وسار في جموعة حتى نزل بمغمداش من سرت، فبلغه أن أهل ودان^(٢) قد نقضوا عهدهم مع بسر ابن أبي أرطاة الذي كان عقده معهم حين وجهه إليهم عمرو بن العاص ومنعوا ما كانوا اتفقوا عليه من الجزية، فوجه إليهم عقبة قسماً من الجيش عليهم عمر بن علي القرشي وزهير بن قيس البلوي، وسار معهم بالقسم الآخر من الجيش واتجه إلى فزان^(٣)، فلما دنا منها دعاهم إلى الإسلام فأجابوا^(٤)

ثم واصل فتوحاته، فتح قصور كُوَّار^(٥)، وخاور^(٦)، وغدامس^(٧)، وغيرها، ومما يلاحظ أن عقبة تجنّب في مسيرة المناطق الساحلية، فقصده المناطق الداخلية يفتحها بلداً بلداً، ويبدو أنه فعل ذلك ليأخذ البربر إلى جانبه ويقوم جبهة داخلية تحيط بالبيزنطيين على الساحل وتمدّه بالطاقات البشرية للاستقرار والإطاحة بالوجود البيزنطي^(٨).

ومن أجل مآثر عقبة بن نافع بناء مدينة القيروان، ففي سنة ٥٠ هـ بدأت إفريقية الإسلامية عهداً جديداً مع عقبة بن نافع، المتمرس بشؤون إفريقية منذ حداثة سنّه، فقد لاحظ كثرة ارتداد البربر، ونقضهم العهود، وعلم أن السبيل الوحيد للمحافظة على إفريقية ونشر الإسلام بين أهلها هو إنشاء مدينة تكون محط رحال المسلمين،

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (٤٨٣/٢)، السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٣٣.

(٢) ودان جنوب إفريقية بينها وبين زويلة عشرة أيام من جهة إفريقية، ياقوت الحموي، معجم البلدان (٣٦٥/٥، ٣٦٦).

(٣) فزان: جنوب ليبيا ولاية واسعة كانت عاصمتها زويلة، الصلابي، الدولة الأموية، (٢ / ٥٥).

(٤) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ١٣٢.

(٥) إقليم ببلاد السودان الغربي جنوب فزان. ياقوت الحموي، معجم البلدان (٤٨٦/٤).

(٦) خاور: مدينة جنوب فزان.

(٧) غدامس: مدينة جنوب ليبيا قرب الحدود الجزائرية.

(٨) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين ص ٢٨٠، الدولة الأموية، (٥٥ / ٢).

ومنها تنطلق جيوشهم فأسس مدينة القيروان وبنى جامعها، وقد مهد عقبة قبل بناء المدينة لجنوده بقوله: إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام، فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلي الكفر، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزا للإسلام إلى آخر الدهر، فاتفق الناس على ذلك وأن يكون أهلها مرابطين، وقالوا: نقرب من البحر لئتم لنا الجهاد والرباط، فقال عقبة: إني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية بغتة فيملكها، ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يوجب فيه التقصير للصلاة فهم مرابطون، ولم يعجبه موضع القيروان الذي كان بناه معاوية بن حديج قبله، فسار والناس معه حتى أتى موضع القيروان اليوم، وكان موضع غيضة لا يرام من السباع والأفاعي، فدعا عليها، فلم يبق فيها شيء، وهربوا حتى أن الوحوش لتحمل أولادها، وعن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال: يا أهل الوادي! إنا حالون إن شاء الله، فظعنوا، ثلاث مرات فما رأينا حجراً ولا شجراً إلا يخرج من تحته دابة حتى هبطنا بطن الوادي: ثم قال للناس: انزلوا بسم الله^(١)، وكان عقبة بن نافع مجاب الدعوة، وقد رأى قبيل من البربر كيف أن الدواب تحمل أولادها وتنتقل، فأسلموا ثم شرع الناس في قطع الأشجار وأمر عقبة ببناء المدينة فبنيت وبنى المسجد الجامع، وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم وتم أمرها سنة ٥٥ هـ وسكنها الناس، وكان في الناس، وكان في أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا، فتغير وتنهب ودخل كثيراً من البربر الإسلام، واتسعت خطة المسلمين وقوي جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان وأمنوا واطمأنوا على المقام فثبت الإسلام فيها^(٢)، وتم تخطيط مدينة

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٣٤، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ١٩، الصلابي، الدولة الأموية - ٢ / ٥٨.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (٢/٤٨٤). السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٣٤، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ١٩.

القيروان على النمط الإسلامي، فالمسجد الجامع ودار الإمارة توأمان، لا ينفصل أحدهما عن الآخر، فهما دائماً إلى جوار بعضهما، ويكونان دائماً في قلب المدينة التي يخطتها المسلمون ويرتكزان في وسطها^(١)، وبينهما يبدأ الشارع الرئيسي للقيروان، الذي سيسى باسم السماط الأعظم، ثم ترك عقبة فراغاً حول المسجد ودار الإمارة في هيئة دائرة واسعة، ثم قسمت الأرض خارج الدائرة إلى خطط القبائل، ليكون استمراراً للشارع الرئيسي في الاتجاهين إلى نهاية المدينة، وانجفل البربر من نواحي إفريقية إلى القيروان، وسكنوا حولها وكان الكثير منهم دخل في الإسلام، وشرعوا في تعلم اللغة العربية والقرآن الكريم وأمور دينهم وهكذا نشاهد فيما بين سنتي ٥٠ و٥٥هـ حركة قوية بدأت في تعريب الشمال الأفريقي^(٢).

وبينما كان عقبة يواصل فتوحاته، وينظم مدينته الجديدة، إذ بوالي مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري يعزله سنة ٥٥ هـ / ٦٧٤ م، ويولي مكانه مولاة أبا المهاجر بولاية إفريقية، وقد صرح هو نفسه بذلك حينما قالوا له: لو أقررت عقبة فإن له جزالة وفضلاً فقال:.... إن أبا المهجر صبر علينا في غير ولاية، ولا كبير نيل فنحن نحب أن نكافئه، ولما عزل عقبة ذهب إلى معاوية في دمشق معاتباً، وقال له: فتحت البلاد، وبنيت المنازل، ومسجد الجماعة ودانت لي، ثم أرسلت عبد الأنصار، فأساء عزلي. فاعتذر إليه معاوية، وقال له: عرفت مكان مسلمة بن مخلد من الإمام المظلوم، وتقديمه إياه، وقيامه بدمه وبذله مهجته، ووعده معاوية عقبة برده إلى ولايته، ولكن الأمر تراخي كما يقول ابن عذارى حتى توفي معاوية وأفضى الأمر إلى يزيد، فرد عقبة والياً على إفريقية. وهناك نقطة في هذا

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٣٥، محمد سيد الوكيل، الأمويون ١/٧٢.

(٢) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٣٥، الصلابي، النولة الأموية،

الموضوع، وهي الإساءة التي تعرض لها عقبة من أبي المهاجر أثناء عزله فقد ذكرت المصادر أن أبا المهاجر أساء إلى عقبة إساءة بالغة، فقد سجنه وأوقره حديداً، ولا ندري ما الذي حمل أبا المهاجر على هذا؟.

قال الدكتور عبد الشافي محمد عبد اللطيف في كتابه القيم: ولا ندري ما الذي حمل أبا المهاجر على هذا؟ ويصعب علينا أن نقبل اتهام الدكتور حسين مؤنس لمسلمة بن مخلد، بأنه هو الذي أوعز إلى أبي المهاجر أن يسيء إلى عقبة. فهذا اتهام لا يستند إلى دليل، خصوصاً وأن ابن عبد الحكم يقول عن مسلمة حين ولي أبا المهاجر: وأوصاه حين ولاه أن يعزل عقبة بأن يحسن العزل، فخالفه أبو المهاجر، فأساء عزله وسجنه وأوقره حديداً، حتى أتاه كتاب من الخليفة بتخليفة سبيله وإشخاصه إليه.

ثم يذكر أن مسلمة ركب إلى عقبة حين مر بمصر وترضاه وأقسم له بالله لقد خالفه ما صنع أبو المهاجر وقال له: ولقد أوصيته بك خاصة^(١)، ولكن لماذا خالف أبو المهاجر وصية مولاه مسلمة وأساء إلى عقبة، مع أنه هو شخصياً كان يجل عقبة، ويعرف مقامه، وقد جزع عندما دعا عليه عقبة، وقال هذا رجل لا يرد له دعاء، هذا هو السؤال الذي لا نملك عليه جواباً شافياً.. اللهم إلا الاستنتاج الذي أخذ به محمد على دبوز، وهو أن أبا المهاجر ربما يكون قد اضطر اضطراراً إلى القبض على عقبة وسجنه، لأن عقبة خاشنه ولم يرضخ للعزل بسهولة؛ لأنه كان يرى نفسه أحق بالولاية والقيادة من أبي المهاجر: ولعل أبا المهاجر قد خاف من خلاف يقع بين المسلمين لعدم رضوخ عقبة له فيستغله أعداؤهم الروم، فاضطر إلى سجنه حتى لا يحدث خلل بين المسلمين.

إن كان هذا الاستنتاج صحيحاً وهو على كل حال معقول، فقد

(١) ابن عبد الحكم، فتوح مصر ص١٣٤، الدولة الأموية، ٢ / ٦٥.

يخفف من شدة اللوم الذي يوجهه إلى أبي المهاجر كل مسلم حريص على أن تسود روح الاحترام والإجلال بين القادة المسلمين مهما كانت خلافاتهم، وأن يحاول اللاحق منهم الاستفادة من جهود السابق وخبرته، بدلاً من الإساءة وتبادل الأحقاد، وأن يكون السابق منهم حريصاً كذلك على أن يعطي خبرته وتجاربه ونصائحه للاحق، حتى ينجح في مهمته؛ لأن هدفهم واحد وهو الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته ونشر دينه^(١).

... على الرغم... من الخطأ الكبير الذي ارتكبه أبو المهاجر في حق سلفه، المجاهد الكبير عقبة بن نافع، إلا أن الإنصاف يقتضينا أن نقول إنه قام بدور عظيم في فتح المغرب وتمهيده لقبول الإسلام ديناً ونظام حياة، فقد كان أبو المهاجر يتمتع بقدر كبير من الكياسة والسياسة وحسن التصرف، وقد رأى - بثاقب نظرة - أن سياسة الشدة التي كان يسير عليها عقبة بن نافع لا بد أن تغير، وعليه أن يصطنع بدلها سياسة كسب القلوب، فالبربر قوم أشداء يعتدون بكرامتهم وحريرتهم، فسياسة اللين معهم قد تكون أجدى من سياسة الشدة، وقد نجح أبو المهاجر في سياسته تلك نجاحاً كبيراً، كما أن أبا المهاجر قد أدرك أن الذين يحركون البربر في شمال إفريقيا ضد المسلمين ويؤلبونهم عليهم، هم الروم، الذين أخذوا يتحبيون إلى البربر، ولذلك انتهج سياسة تقوم على كشف حقيقة الروم وعلى إقناع البربر أن المسلمين ما جاؤوا إلى هذه البلاد يستعمروهم ويستعبدونهم ويستغلوا بلادهم، كما يحاول الروم أن يفهموهم، وإنما جاؤوا لهدايتهم ولخيرهم ودعوتهم إلى الإسلام الذي فيه سعادتهم ومساعدتهم على التحرر من ربة الروم، الذين يستغلون بلادهم منذ قرون، وكان الروم رغم الهزائم التي حلت بهم في وسط إقليم إفريقية

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٣٦ - ٣٧، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ٢٠ - ٢١، الدولة الأموية، ٢ / ٦٥.

وجنوبه، لازالوا قوة في الشمال، ولا زالت عاصمتهم قرطاجنة عذراء لم يقصدها أحد من الفاتحين الأولين، ثم إنهم لازالوا قوة في ساحل المغرب من بنزرت إلى طنجة، فكان على أبي المهاجر أن يضرب الروم ضربة قوية ليضعضع نفوذهم في تلك النواحي، ويكسر الحلف الذي عقده مع البربر، فسار إلى قرطاجنة ونازلها^(١)، فاستغلقت وتحصنت بالأسوار العالية، فشد أبو المهاجر الحصار عليها فعلم الروم أنه لا قبل لهم بالجيش الإسلامي، وأن أبا المهاجر لا بد أن ينتصر عليهم، فدخل العاصمة باقتداره وقوته، فطلبوا الصلح فصالحهم بإخلاء جزيرة شريك، لتتنزل فيها جنوده، وكان أبو المهاجر يهدف من احتلال جزيرة شريك، القريبة من قرطاجنة، أن يراقب الروم وتحركاتهم، وترك فيها حامية من الجيش جعل على رأسها قائده حنش الصنعاني ليصد الروم إذا حاولوا مهاجمة المسلمين أثناء غزوهم للبلاد.

رفع أبو المهاجر الحصار عن قرطاجنة بعد أن انتزع من الروم جزيرة شريك، ذلك الموقع الإستراتيجي الهام، وترك فيها حامية تؤمن ظهر المسلمين، وتراقب تحركات الروم، ثم اتجه بعد ذلك مسائراً الساحل ناحية الغرب، وقد خافه الروم والبربر جميعاً، فلم يتعرض له أحد، حتى وصل إلى مدينة ميلة، على خمسين ميلاً من بجاية في جنوبها الشرقي فوجدها مستعدة للقتال، وكان فيها طائفة من البربر والروم، تحصنوا بها، فنازلها أبو المهاجر واحتلها، وغنم ما فيها واستقر بها، وكانت ميلة تتوسط المغربيين الأدنى والأوسط، فهي أحسن مكان يراقب منه أمور البربر والروم في هذه البقاع، فجعلها مقره، وأقام بها نحواً من سنتين وقد استثمر هذه المدة في

(١) أبو المحاسن بن تغبردي، النجوم الزاهرة (١٥٢/١)، السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٣٦ - ٣٧، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٠ / ١ - ٢١، الصلابي، الدولة الأموية - (٢ / ٢٦).

الاتصال بالبربر، وإفهامهم حقيقة الإسلام، ودعوتهم إليه، وقد نجح في سياسته نجاحاً كبيراً فأقبل البربر على الإسلام وآية ذلك أن المؤرخين لم يتحدثوا عن معارك وقعت له في هذه النواحي من المغرب، قسطنطينية الآن ونواحيها إلى بجاية. لأن الروم كانوا يتقوون بالبربر، وهاهو أبو المهاجر قد نجح في اجتذاب البربر وفصلهم عن الروم، فسكنت تلك النواحي، سكون البحر بعد العاصفة، وترامت الأخبار إلى أبي المهاجر أن جمعاً من الروم والبربر يستعد لحربه، فقرر المسير إليهم، وكانت زعامة المغربين الأوسط والأقصى لقبيلة أوربة^(١)، وهي قسم كبير من أقسام البربر البرانس، وكان زعيم هذه القبيلة كسيلة بن لمزم، وكان كسيلة قوي الشخصية ذكي الفؤاد، غيوراً على وطنه، وكان البربر يجلونه ويحبونه وكان نصرانياً متمسكاً بدينه، وكان لا يعرف حقيقة الإسلام والمسلمين، فاستطاع الروم أن يوحوا إليه ما أرادوا في الإسلام والمسلمين فراهم عدواً لدينه ووطنه، ورأى أن أبا المهاجر في ميعة، فعلم أنه لا بد أن يسير لافتتاح المغرب الأوسط والأقصى، فذهب يدعو البربر لمكافحة المسلمين والاستعداد لحربهم وإجلانهم عن بلادهم، فتحمس البربر بثورة أميرهم كسيلة فلبسوا لأمة الحرب، واستعدوا للقراع، فتجمع لكسيلة جيش كثيف من البربر والروم^(٢).

١ - معركة تلمسان: بعد أن استكمل كسيلة عدته عسكر في تلمسان، وانتظر اللقاء المرتقب مع أبي المهاجر ولم يطل انتظاره، فقد وصل أبو المهاجر، وعسكر بجيشه حول تلمسان، فالتقى الجيشان ودارت معركة قاسية، أبلى فيها كل من الفريقين بلاءً كبيراً، وأدركوا خطورتها وأن لها ما بعدها، وكثر القتلى من الجيشين، ثم

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٣٦ - ٣٧، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ٢٠ - ٢١. الصلابي، الدولة الأموية - (٢ / ٦٨).

(٢) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٣٦ - ٣٧، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ٢٠ - ٢١، الدولة الأموية - ٢ / ٦٨.

أنزل الله نصره على المسلمين، فهزموا جيش كسيلة فولى الأدبار^(١). ظل أبو المهاجر على ولاية إفريقية حتى مات معاوية سنة ٦٠ هـ وأفضت الخلافة من بعده لابنه يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وكان يزيد مقتنعا بفضل عقبة على الإسلام وحسن بلائه في غزو إفريقية، فاستقطع ولاية إفريقية من مسلمة بن مخلد والي مصر، وعزل أبا المهاجر بن دينار، ورد عقبة بن نافع إلى ولاية إفريقية للمرة الثانية^(٢).

وصل عقبة بن نافع إلى إفريقية ورتب أمورها وعامل أبا المهاجر معاملة قاسية، فقد أوثقه في وثاق شديد^(٣)، ومع هذا فقد كان أبو المهاجر مخلصًا وقيًا شهماً غيورًا فلم يبخل بنصائحه لعقبة بالرغم ما حدث بينهما من الجفوة ومن أبرز هذه النصائح إشارته على عقبة بإكرام زعيم البربر كسيلة، ومحاولة تأليفه ليقبى على الإسلام، ولكن عقبة أهان ذلك الزعيم، حيث أمره يوماً أن يسلم شاة بين يديه، فدفعها كسيلة إلى غلمانها، فأراده عقبة أن يتولاها بنفسه وانتهره، فقام كسيلة مغضبًا وجعل كلما دس يده في الشاة مسح بلحيته، وبلغ ذلك أبا المهاجر فبعث إليه ينهائه ويقول: كان رسول الله ﷺ يتألف جبابرة العرب وأنت تعمد إلى رجل جبار في قومه وبدار عزه حديث عهد بالشرك فتفسد قلبه؟ توثق من الرجل فأني أخاف فتكه، ولاشك أن عقبة حينما أهان ذلك الزعيم البربري لم يكن يعتقد بصحة إسلامه؛ إذ إن عقبة كان في غاية التواضع للمسلمين، وكان اجتهاده يقضي بمحاولة إذلال ذلك الرجل حتى يتحطم طغيانه وتهون مكانته في نفوس قومه فلا يستطيع بعد ذلك أن يستنفرهم لحرب ضد

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٣٧.

(٢) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٣٧.

(٣) ابن عبد الحكم، فتوح مصر ص ١٣٤، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٤ / ٤٥، السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٣٦ - ٣٧، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ٢٠ - ٢١، الصلابي، الدولة الأموية - (٢ / ٧٠).

المسلمين، ولكنه أخطأ في اجتهاده، لأن قوم ذلك الرجل كانوا حديثي عهد بالإسلام، ومهما كان لظن عقبة فيه من احتمال في عدم الصدق في الولاء فإن كسبه وبقائه في جيش المسلمين وتحت سلطتهم أولى بكثير من معاداته وإتاحة الفرصة له لضرب المسلمين من مكامن الخطر، وهو الذي صحبهم وحاز على شيء من ثقتهم.

ومن موقف عقبة المذكور تظهر لنا نتيجة مهمة من نتائج العمل بسنن الإسلام التي من أهمها العمل بالشورى وأخذ رأي أهل الحل والعقد خاصة في الأمور المهمة، وعلى أي حال فإن كلا القائدين كان مجتهداً في تصرفه ولا يظن بواحد منهما أنه كان يعمل لصالح نفسه أو لصالح عشيرته وإنما كان رائدهما النظر في مصلحة الإسلام والمسلمين، ولكن كان اجتهاد أبي المهاجر أقرب إلى الصواب في هذه القضية^(١).

بعد اكتمال بناء القيروان عام خمسة وخمسين عُزل عقبة بن نافع عن ولاية إفريقية، ثم أُعيد إليها عام اثنين وستين قام برحلته الجهادية المشهورة التي قطع فيها ما يزيد على ألف ميل من القيروان في تونس إلى ساحل المحيط الأطلسي في المغرب، وقد استخلف على القيروان زهير ابن قيس البلوي ودعا لها قائلاً: يا رب أملاًها علماً وفقهاً وأملاًها بالمطيعين لك، واجعلها عزاً لدينك وذلاً على من كفر بك.. وامنعها من جبايرة الأرض، وخرج عقبة بأصحابه الذين قدم بهم من الشام وعددهم عشرة ألف إلى جانب عدد كبير انضم إليهم من القيروان، ودعا بأولاده قبل سفره وقال لهم: إني قد بعت نفسي من الله عز وجل فلا أزال أجاهد من كفر بالله ثم قال: - يا بني، أوصيكم بثلاث خصال فاحفظوها ولا تضيعوها: إياكم أن تملؤوا صدوركم بالشعر وتتركوا القرآن، فإن القرآن دليل على الله عز وجل، وخذوا من كلام العرب ما يهتدي به اللبيب، ويدلكم على

(١) الدولة الأموية، ٢ / ٧١.

مكارم الأخلاق، ثم انتهوا عما وراءه، وأوصيكم ألا تُداینوا، ولو لبستم العباء فإن الدّین ذلّ بالنهار وهم بالليل، فدعوه تسلم لكم أقداركم وأعراضكم وتبّق لكم الحرمة في الناس ما بقيتم، ولا تقبلوا العلم من المغرورين المرخصين فيجهلوكم دين الله ويفرقوا بينكم وبين الله تعالى، ولا تأخذوا دينكم إلا من أهل الورع والاحتياط فهو أسلم لكم، ومن احتاط سلم ونجا فيمن نجا - ثم قال: عليكم سلام الله وأراكم لا تروني بعد يومكم هذا - ثم قال: اللهم تقبل نفسي في رضاك واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك^(١).

وهكذا ما أن وطئت أقدام عقبة أرض القيروان حتى عزم على الخروج للجهاد غير هيب ولا متردد، ومما يدل على مبلغ حبه للجهاد وهيامه به قوله في وصيته لأولاده: إني قد بعث نفسي من الله عز وجل فلا أزال أجاهد من كفر بالله. فهو قد باع نفسه من الله عز وجل، واشتاق إلى الثمن العظيم الغالي: **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقِنُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيَعِّبِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴿١١١﴾ [التوبة: ١١١]. فجعل عمله الذي نذر حياته لأجله هو الجهاد، ونصب أمام عينيه الهدف السامي، وهو إعلاء كلمة الله في الأرض، وفي وصيته المذكورة لأولاده فوائد جلية، فقد أوصاهم بثلاث وصايا:

أ - الوصية الأولى: الاهتمام بانتقاء العلم واختيار أطيبه، وذلك بالاهتمام أولاً بالقرآن الكريم، حيث إنه الكتاب الذي يدل على الله عز وجل، وما أبلغه من وصف يهدي إلى بلوغ الهدف السامي الذي يسعى إليه كل مؤمن، وهو ابتغاء رضوان الله تعالى ونعيمه، ولا شك أن سنة رسول الله ﷺ مما يدخل في مقاصد القرآن الكريم لقوله تعالى: **رُوِيَ أَنَّكُمْ الرُّسُولَ فَخُذُوهُ وَمَنْهَكُمُ عَنْهُ فَأَنْتُمْ وَأَنْتَوُا اللَّهَ شَدِيدًا**

(١) ابن عذاري، البيان المغرب ٢٣/١، الدولة الأموية، ٢ / ٧٢.

أَعْقَابِ { [الحشر: ٧]}. ثم انتقاء الطيب من كلام العرب الذي يرشد إليه العقل السليم ويحث على مكارم الأخلاق.

ب - الوصية الثانية: البعد عن الاستدانة ولو دفع إليها الفقر؛ لأن الدين ذل بالنهار حيث يدفع المستدين إلى بعض مواقف الذل أمام الدائن ومن لهم علاقة به، وهم بالليل حيث يخلو المستدين إلى نفسه فيتذكر حقوق الناس عليه.

ج - الوصية الثالثة: التحري في تلقي العلم، وذلك باختيار العلماء الربانيين أهل الورع والتقوى، والبعد عن العلماء المغرورين أهل الدنيا والجاه، فإنهم يزيدون المتعلم جهلاً حيث يبعده عن حقيقة العلم وثمرته وهي تقوى الله عز وجل. ونجد عقبة في نهاية وصيته لأولاده يسلم عليهم سلام المودع، مما يدل على استماتته في سبيل الله تعالى، ثم يقول: اللهم تقبل نفسي في رضاك، واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك. وبهذا الاهتمام الكبير نجح عقبة بن نافع رحمه الله في فتوحاته حيث جعل الجهاد قضيته الكبرى في هذه الحياة.

سار عقبة في جيش عظيم متجهاً إلى مدينة باغية^(١)، حيث واجه مقاومة عنيفة من البيزنطيين الذين انهزموا أمامه، ودخلوا مدينتهم وتحصنوا بها، فحاصروهم مدة ثم سار إلى تلمسان وهي من أعظم مدائنهم فانضم إليها من حولها من الروم والبربر، فخرجوا إليه في جيش ضخم والتحم القتال، وثبت الفريقان حتى ظن المسلمون أن في تلك المعركة فناءهم ولكن من عليهم بالصبر، فكانوا في ذلك أشد وأصبر من أعدائهم فهاجموا الروم هجوماً عنيفاً حتى ألجؤوهم إلى حصونهم، فقاتلوهم إلى أبوابها، وأصابوا منهم غنائم كثيرة، ثم استمر غرباً قاصداً بلاد الزاب، فسأل عن أعظم مدنها ف قيل له (أربيه) وهي دار ملكهم وكان حولها ثلاثمائة وستون قرية كلها

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٥٨٩/٢، الدولة الأموية، ٧٤/٢.

عامرة، فامتنع بها من كان هناك من الروم وأهل المدينة وهرب بعضهم إلى الجبال، فاقتتل المسلمون مع أهل تلك المدينة فانهمز أهل تلك البلاد وقُتل كثير من فرسانهم ورحل عقبة إلى (تاهرت) فاستغاث الروم بالبربر فأجابوهم ونصروهم، وقام عقبة بن نافع في الناس خطبةً فقال بعدما حمد الله وأثنى عليه: أيها الناس، إن أشرافكم وخياركم الذين رضي الله تعالى عنهم وأنزل فيهم كتابه بايعوا رسول الله بيعه الرضوان على من كذب بالله إلى يوم القيامة، وهم أشرافكم والسابقون منكم إلى البيعة، باعوا أنفسهم من رب العالمين بجنته بيعة رابحة، وأنتم اليوم في دار غربة وإنما بايعتم رب العالمين، وقد نظر إليكم في مكانكم هذا، ولم تبلغوا هذه البلاد إلا طلباً لرضاه وإعزازاً لدينه، فأبشرو فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل إن شاء الله تعالى وربكم عز وجل لا يُسلمكم، فالقوهم بقلوب صادقة، فإن الله عز وجل جعلكم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين فقاتلوا عدوكم على بركة الله وعونه والله لا يرد بأسه عن القوم المجرمين^(١).

وهذه خطبة عظيمة تدل على أن عقبة بن نافع رضي الله عنه قد اعتمد في حروبه على السلاح الأعظم الذي فيه سر انتصارات المسلمين الباهرة.. ألا وهو التوكل على الله تعالى، واستحضار عظمته وجلاله، ومعيته لأوليائه المؤمنين بالنصر والتأييد، فهو لا يبالي بجيوش الأعداء مهما كثرت، وإنما الذي يهتم به أن يتأكد جيداً من أن هذا السلاح المعنوي الفعال قد توفر في جيشه، وحينما يضمن ذلك فإنه يرحب باجتماع جيوش الأعداء؛ ليكون ذلك أسرع في هلاكهم وتمزيق جمعهم على يد أولياء الله الصالحين وما أعظم شبه عقبة بخالد بن الوليد رضي الله عنه، الذي كان يُسرُّ ويداخله شعور بالقوة والتعاطف - من غير غرور ولا استهانة - كلما تضخم جيش

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٣/١ - ٢٧، السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٣٨، الصلابي، الدولة الأموية - (٢ / ٧٥).

الأعداء وتعددت عناصره، وكان عقبة قد تأس به واتخذ له قدوة في القيادة والإقدام الذي لا يعرف التردد والسأمة، وهو في إقدامه واندفاعه يدرك أن جنود الإسلام الصادقين هم بأس الله تعالى المسلط على أعدائه الكفار، والله تعالى لا يُردّ بأسه عن القوم المجرمين. إن شعوره الدائم بأن المجاهدين المسلمين هم سيف الله تعالى وبأسه الموجه ضد أعدائه يجعله عظيم الثقة بنصر الله تعالى وحسن الظن به. هذا وقد التقى المسلمون بأعدائهم في مدينة (تاهرت) وقاتلوهم قتالاً شديداً، فاشتد الأمر على المسلمين لكثرة عدوهم، ولكنهم انتصروا أخيراً، وانهزم أعداؤهم من الروم والبربر، وقتل منهم عدد كبير، وغنم منهم المسلمون أموالهم وسلاحهم، ثم توجه إلى جهات المغرب الأقصى فوصل إلى طنجة، حيث قابل بطريق من الروم اسمه (جوليان) الذي: أهدى له هدية حسنة، ونزل على حكمه ولما سأله عقبة عن بحر الأندلس قال عنه: لا إنه محفوظ لا يرام، ثم سأله عن البربر والروم بقوله: دلني على رجال البربر والروم فقال: قد تركت الروم خلفك وليس أمامك إلا البربر وفرسانهم في عدد لا يعلمهم إلا الله تعالى وهم أنجاد البربر وفرسانهم، فقال عقبة: فأين موضعهم؟ قال: في السوس الأدنى، وهم قوم ليس لهم دين^(١).. استفاد عقبة من هذه المعلومات واتجه إلى الجنوب الغربي، قاصداً بلاد السوس الأدنى حيث التقى بجموع بربر أطلس الوسطى، فهزمهم وطاردهم نحو صحراء وادي درعا، حيث بنى مسجداً في مدينة درعا ثم غادر صحاري مراكش باتجاه الشمال الغربي إلى منطقة (تافلالت) من أجل أن يدور حول جبال أطلس العليا كي يدخل بلاد صنهاجة الذين أطاعوه دون قتال، وكذلك فعلت قبائل هكسورة في مدينة (أغمات)، بعدها اتجه عقبة نحو الغرب إلى مدينة تيفيس، حيث

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (٢/٥٩٠)، السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٣٨، الصلابي، الدولة الأموية - (٢ / ٧٦).

حاصر بها جموعاً من البيزنطيين والبربر، فلم ينفعهم تحصنهم، فدخل المدينة منتصراً وبذلك أتم تحرير بلاد السوس الأقصى ودخل عاصمتها (إيجلي) التي بنى فيها مسجداً، ثم دعا القبائل فيها هناك إلى الإسلام فأجابته قبائل جزولة، وبعد ذلك سار إلى مدينة (ماسة) ومنها إلى رأس (إيفران) على البحر المحيط^(١)، وبوصول عقبة بن نافع إلى ساحل المحيط الأطلسي يكون قد أنجز تحرير معظم بلاد المغرب.

وتشير مصادرنا التاريخية أن عقبة لما وصل إلى المحيط الأطلسي قال: يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك. ثم قال: اللهم أشهد أنني قد بلغت الجهود، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بالله حتى لا يعبد أحد من دونك ثم وقف ساعة ثم قال لأصحابه: ارفعوا أيديكم، ففعلوا، فقال: اللهم لم أخرج بطراً ولا أشراً، وإنك لتعلم أنما نطلب السبب الذي طلبه عبدك ذو القرنين، وهو أن تُعبد ولا يُشرك بك شيء، اللهم إنا معاندون لدين الكفر، ومدافعون عن دين الإسلام، فكن لنا ولا تكن علينا يا ذا الجلال والإكرام، ثم انصرف راجعاً^(٢).

وندرک من قوله المذكور مدى حبه للجهاد وشعوره بالمسئولية الكبرى التي حملها على عاتقه نحو تبليغ الإسلام وتقوية دولته والقضاء على دول الكفر التي حجبت نور الإسلام عن شعوبها، فهو يقف على البحر المحيط ويعلم أنذاك أنه نهاية المعمور من الأرض من ناحية المغرب، ثم نجده يُشهد الله تعالى على أنه قد بلغ المجهود الذي تحت مقدرته، وهذه الشهادة تشعرتنا بمدى ارتباط عقبة بالله

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (٥٩٠/٢)، السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٣٨، الصلابي، الدولة الأموية - (٧٧ / ٢).

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (٥٩٠/٢)، ابن عذاري، البيان المغرب (٢٣/١-٢٧). السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٣٨، الصلابي، الدولة الأموية - (٧٧ / ٢).

تعالى، وأنه لم يكن يسير خطوة إلا وهو يستلهم التوفيق منه جل وعلا ويطلب رضوانه، وهذا الكلام يدل على وضوح الهدف من الجهاد عند عقبة حيث بيّن أن الحد الذي يقف عنده الجهاد، أن يزول الشرك من الأرض، وأن لا يعبد إلا الله وحده، ومادام الشرك قائماً فإن الجهاد لا بد أن يكون موجوداً، فالجهاد أذن هو جهاد الدعوة إلى الله تعالى، وذلك بإزالة الطغيان البشري وإخضاع دول العالم لحكم الإسلام لكي يكون فهم الإسلام واعتناقه متيسراً لكل الناس^(١).

ولم يقف عمل عقبة على الجهاد بل رافق ذلك بناء المساجد مثل مسجد درعة ومسجد ماسة بالسوس الأقصى، كما كان يترك نفراً من أصحابه يعلمون الناس القرآن وشرائع الإسلام، ومن هؤلاء شاعر الذي بنى رباطاً ما بين بلدي مراكش وموجادور ولا زال موقعه باقياً إلى اليوم وهو المعروف عند العامة بالمغرب الأقصى بسيدي شاعر، ويظهر أن أغلبية بربر المغرب الأقصى أسلموا على يده طوعاً مثل صنهاجة وهسكورة وجزولة، كما أخضع المصامدة، وحملهم على طاعة الإسلام، وكى يأمن القبائل الكثيرة من الانتقاض عليه، كان عقبة يأخذ منها رهائن ويولي عليها رجلاً منها مثلما فعل مع مصمودة فقد ترك عليها أبا مدرك زرعة بن أبي مدرك، أحد رؤسائها، الذي شارك في فتح الأندلس فيما بعد، ويلاحظ أن الوثنية كانت غالبية على بربر المغرب الأقصى مما يفسر كثرة السبايا والغنائم، وأصاب (عقبة) نساءً لم يرى الناس مثلهن فقيل: إن الجارية كانت تساوي بالمشرق ألف مثقال وأكثر، وكان السبي أحد عوامل انتشار الإسلام بين البربر بحكم اختلاطهم بالبيئة العربية الإسلامية، ثم إن الاحتكاك والاختلاط المستمرين بين المقاتلة العرب، والبربر أوجد صلات وروابط تجلت في الحلف والولاء في

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٣٨، الصلابي، الدولة الأموية - (٢ / ٧٧).

هذا الوقت المبكر. يذكر السلاوي أن عقبة حين وصل إلى جبل درن: نهضت زناته وكانت خالصة للمسلمين منذ إسلام مغراوة وهذا يشعر بأن بعض زناته ومغراوة كانتا قد أسلمتا منذ زمن وكانتا حليفتان للمسلمين فنهضتا للدفاع عن المسلمين^(١).

ويبدو أن أخبارا مقلقة من إفريقية بلغت عقبة فعجل بالعودة إلى القيروان مارا ببايغران يطوف، وتارنا، ومنها إلى رباط شاكر، ودخل إقليم دكالة، حتى دخل طنجة، ومنها اتجه إلى المغرب الأوسط، ولما بلغ مدينة طنبة، أرسل أكثر فرق جيشه من طريق آخر، ولم يستبق معه سوي خمسة آلاف، وسار هو إلى مدينة تهودة ليستولي عليها، ويجعل منها قاعدة حربية لقواته في منطقتة أوراس، ولكنه ما كاد يقترب منها حتى اعترضه كسيلة بن لمزم بجموع هائلة من بربر البرانس، يتجاوز عددهم خمسين ألفا، وقطع بهم على عقبة خط الرجعة، وأحس عقبة أمام هذه الحشود المتجمعة من البربر بنهاية أجله، فأراد أن يبعث أبا المهاجر مع من اتبعه من المسلمين إلى القيروان، ويبقي هو لقتال البربر، فأبي أبو المهاجر إلا أن يغتنم الشهادة معه، فنزل المسلمون عن دوابهم، وكسروا أغماد سيوفهم، ودارت المعركة عند تهودة سنة ٦٣ هـ، فاستشهد عقبة وأبو المهاجر وسيفاهما في أيديهما، واستشهد معه عدد كبير من المسلمين، وأسر الباقون، ففداهم صاحب قفصة، وبعث بهم إلى زهير بن قيس البلوي^(٢).

وعلي ما يبدو أن عقبة كان يحس إحساس المؤمن الصادق، أنه سيلقى ربه شهيداً في هذه الجولة، فعندما عزم على المسير من القيروان في بداية الغزو دعا أولاده وقال لهم: إني قد بعث نفسي من

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٣٨، الصلابي، الدولة الأموية - (٢ / ٧٨).

(٢) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٣٩.

الله عز وجل... إلى أن قال: ولست أدري أتروني بعد يومي هذا أم لا، لأن ألمي الموت في سبيل الله، وأوصاهم بما أحب، ثم قال: عليكم سلام الله.. اللهم تقبل نفسي في رضاك^(١). نعى عقبة نفسه إلى أولاده، فتقبل الله منه وحقق له أمله في الشهادة، فقد أعد له الروم والبربر كميناً عند تهودة^(٢)، وأوقعوا به وقضوا عليه هو ومن معه من جنوده، وترجع المصادر أمر الكارثة التي تعرض لها عقبة عند تهودة إلى سبب رئيسي وهو سياسته نحو البربر بصفة عامة، وزعيمهم كسيلة بصفة خاصة ذلك الزعيم صاحب النفوذ والمكانة في قومه، والذي كان أبو المهاجر قد تألفه وأحسن إليه، فأسلم وتبعه كثير من قومه، لكن عقبة أساء إلى هذا الرجل إساءة بالغة، فأدرك أبو المهاجر عاقبة الخطأ الذي وقع فيه عقبة ولم يكتف نصيحته عنه - رغم أنه كان في حكم المعتقل - ولكن عقبة لم يسمع منه، وكان أبو المهاجر من معاشرته للبربر وزعيمهم، قد عرف مدى اعتزازهم بكرامتهم، وأدرك أنهم لن يقبلوا هذه الإهانة، وهذا الإذلال الذي لحق بزعيمهم من عقبة فخاف غدرهم، فأشار على عقبة بالتخلص من كسيلة وقال له: عاجله قبل أن يستفحل أمره، ولكن عقبة لم يصغ إلى هذه النصيحة أيضاً وليته احتاط للأمر، بل أقدم على عمل آخر في غاية الخطورة، حيث جعل معظم جيشه يسير أمامه بعد أن رجع من رحلته الطويلة من المغرب الأقصى قاصداً القيروان، ولما صار قريباً من القيروان أرسل غالب جيشه على أفواج إلى القيروان وبقي هو على رأس الفوج الأخير، ومعه ما يقرب من ثلاثمائة من الفرسان من الصحابة والتابعين، وكان من عادة عقبة أنه يكون في مقدمة الجيش عند الغزو ويكون في الساقة عند قفول الجيش، فهو بذلك يعرض نفسه لخطر مواجهة العدو دائماً وإن هذه التضحية

(١) البيان المغرب، ٢٣/١ - ٢٤، الدولة الأموية، ٢ / ٧٩.

(٢) تهودة: اسم لقبيلة بربرية بناحية إفريقية لهم أرض تعرف بهم. الدولة الأموية، ٢ / ٧٩.

الكبيرة جعلته محبوباً لدى أفراد جيشه بحيث لا يعصون له أمراً ويتسابقون على التضحية اقتداءً به، وهذه الصفة تعتبر من أهم عوامل نجاح القائد في أي عمل يتوجه إليه ولما علم الروم بانفراد عقبة بهذا العدد القليل من جيشه انتهزوا هذه الفرصة لمحاولة القضاء عليه، وهم يدركون أن وجوده القوي يعتبر أهم العوامل في تماسك المسلمين وبقاء قوتهم، فتأمروا عليه مع كسيلة البربري، فجمعوا لعقبة وأصحابه جمعاً لا قبل لهم به وإذا بكسيلة يحيط بجيش عقبة في جمع عدته خمسون ألفاً^(١). وكان أبو المهاجر موثقاً في الحديد مع عقبة، فلما رأى الجموع تمثل بقول أبي محن الثقفي:

كفى حزناً أن تمرغ الخيل بالقنا :: وأترك مشدوداً على وثاقي
إذ قمتُ عتاني الحديد وأغلّت :: مصارع من دوبي تصمّ المناديا

فلما سمع عقبة ذلك أطلقه، فقال له: الحق بالمسلمين وقم بأمرهم وأنا اغتتم الشهادة، فلم يفعل وقال: وأنا أيضاً أريد الشهادة^(٢)، وهكذا كان أبو المهاجر نموذجاً من تلك النماذج الفريدة من الرجال، الذين هانت عليهم الحياة الدنيا واستولى على قلوبهم حب الآخرة وكسب رضوان الله تعالى، ومن هذا المنطلق أقدم عقبة ومعه عدد قليل على معركة غير متكافئة، وكان بإمكان بعضهم الفرار ولكنهم ثبتوا ثبات الأبطال حتى استشهدوا جميعاً في بلاد (تهوذة) من أرض الزاب.

ويذكر المؤرخون: أن قبور هؤلاء الشهداء معروفة في ذلك المكان وأن المسلمين يزورونها^(٣). وهكذا تحقق أمل عقبة وأبي المهاجر ونالا الشهادة في سبيل الله بعد ما قاما بالواجب الذي عليهم، واستقبلوا الشهادة في سبيل الله بنفس راضية مطمئنة إلى حسن ثواب ربها، وقد استطاع عقبة أن يشق بجهاده للإسلام طريقه في هذا

(١) البيان المغرب (٢٥/١)، الدولة الأموية - ٨٠ / ٢.

(٢) الكامل في التاريخ، ٥٩١/٢، الدولة الأموية، ٨١ / ٢.

(٣) البيان المغرب ٢٨/١، الدولة الأموية، ٨١ / ٢.

الجزء من العالم الذي سار فيه خلفاؤه من بعده، زهير بن قيس البلوي، وحسان بن النعمان الغساني، وموسى بن نصير، فقد حقق أهدافه من التمهيد لنشر الإسلام والجهاد في سبيل الله، ولقد كان استشهاد عقبة بن نافع ومن معه في عام ثلاثة وستين للهجرة وعمره آنذاك في حدود أربع وستين سنة، وبهذا ندرك مبلغ القوة التي كان يتمتع بها أسلافنا حيث قام بتلك الرحلة الشاقة وخاض المعارك الهائلة وقد جاوز الستين من عمره وهكذا استشهد هذا القائد العظيم بعد جهاد دام أكثر من أربعين عاماً قضاها في فتوح شمال أفريقيا، ابتداء بمصر وإنهاء بالمغرب الأقصى^(١).

* * *

(١) الدولة الأموية، ٢ / ٨١.

موسي بن نصير
وطارق بن زياد

من مشاهير أعلام المسلمين

موسى بن نصير وطارق بن زياد

ولد (موسى بن نصير) سنة ١٩هـ/٦٤٠م في قرية من قرى الخليل في شمال فلسطين تسمى (كفر متري) فتعلم الكتابة، وحفظ القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، ونظم الشعر، ولما كان والده (نصير) قائداً لحرس معاوية بن أبي سفيان ومن كبار معاونيه؛ تهيأت الفرصة لـ(موسى) لأن يكون قريباً من كبار قادة الفتح، وأصحاب الرأي والسياسة، ويرى عن قرب ما يحدث في دار الخلافة.

وشب موسى وهو يشاهد جيوش المسلمين تجاهد في سبيل الله، لنشر الدين الإسلامي في ربوع الأرض، ورأى والده وهو يستعد لإحدى الحروب، وقد لبس خوذته، وتقلد سيفه، فنظر إليه، وأطال النظر، وتمنى أن يكون مثل أبيه يجاهد في سبيل الله ويرفع راية الإسلام، وجاءت اللحظة الموعودة لينال موسى قيادة بعض الحملات البحرية التي وجهها معاوية لإعادة غزو (قبرص) التي سبق أن فتحها معاوية في سنة ٢٧هـ؛ فنجح في غزوها، وبنى هناك حصوناً، ثم تولى إمارتها، وفي سنة ٥٣هـ (٦٧٣م)، كان موسى أحد القادة الذين خرجوا لغزو جزيرة (رودس) التي انتصر المسلمون فيها.

وتمر الأيام والسنون ويتولى مروان بن الحكم الخلافة، ويتحين موسى بن نصير الفرصة ليحقق أحلامه وطموحاته، ففي سنة ٦٥هـ/ ٦٨٤م أمر مروان بتجهيز الجيش للسير به نحو مصر، وزحف الجند مسرعين بقيادة ابنه (عبد العزيز) وصديقه (موسى بن نصير)

ووصل الجيش إلى مصر، واستطاع مروان أن يضمها تحت لواء المروانيين الأمويين، ثم غادرها إلى دمشق بعد أن عين ابنه (عبد العزيز) والياً، وجعل موسى بن نصير وزيراً له.

وعاش موسى مع عبد العزيز بن مروان في مصر، فكان موضع سره، ووزيره الأول، يساعده في حكم مصر، حتى ازدادت خبرة موسى في شؤون السياسة والحكم، ومات مروان، وتولى الخلافة بدلاً منه ابنه (عبد الملك) وكان عبد العزيز بن مروان يشيد بشجاعة موسى وإخلاصه أمام الخليفة مما جعله يخص موسى بالحفاوة والتكريم.

وفي يوم من الأيام حمل البريد رسالة من الخليفة إلى أخيه عبد العزيز والي مصر يخبره فيها بأنه قد عين أخاه بشر بن مروان والياً على البصرة، وجعل موسى بن نصير وزيراً يساعده على إدارة الولاية ورئيساً لديوان العراق، ومكن الله لموسى، وثبت أركان وزارته، فلم يمضِ وقت طويل، حتى عين الخليفة أخاه بشرًا على الكوفة، وبذلك ترك لموسى بن نصير ولاية البصرة ليدبر شؤونها وحده بوعي وبصيرة، ثم عيّنه صديقه عبد العزيز بن مروان والياً على شمال إفريقية بدلاً من حسان بن النعمان الذي غضب عليه عبد العزيز.

لما عزل حسان بن النعمان، تولى موسى بن نصير على إفريقية بأمر عبد العزيز بن مروان، وكان موسى هذا من أقدر رجال الدولة الأموية وأكثرهم كفاءة وإخلاصاً لها، وكان موسى بن نصير قائماً في حرس معاوية بن أبي سفيان، وقيل إنه كان وصيفاً لعبد الملك بن مروان فأعتقه، وأصبح موسى مولي عبد العزيز بن مروان، وعينه الخليفة عبد الملك بن مروان عاملاً على العراق مع بشر بن مروان ولكن الخليفة أخذ عليه بعض المآخذ، وأراد قتله فافتداه منه عبد

العزیز بن مروان عامل مصر بمال، وأجاره ثم ولاه إفريقية^(١)، ... لا يتفق المؤرخون على تاريخ محدد لتولية موسى بن نصير على المغرب وعزل حسان بن النعمان عنه، ولكن الأقرب إلى تسلسل الأحداث أن يكون عزل حسان وتوليه موسى بن نصير في سنة ٨٥هـ، قبيل وفاة عبد العزيز بن مروان والذي ينسب إليه المؤرخون عزل حسان وتولية موسى، وبعد أن عزل عبد العزيز بن مروان والي مصر حسان بن النعمان والي إفريقية ولي مكانه موسى بن نصير، وكان في أواخر سنة خمس وثمانين الهجرية أو في أوائل سنة ست وثمانين الهجرية وعندما توافدت الجيوش، قام موسى بن نصير خطيباً، فكان مما قاله: وإنما أنا رجل كأحدكم، فمن رأى مني حسنة، فليحمد الله، وليحض على مثلها، ومن رأى مني سيئة، فليكرها، فإني أخطئ كما تخطئون، أصيب كما تصيبون، وقد أمر الأمير أكرمه الله لكم بعطاياكم وتضعيفها ثلاثاً، فخذوها هنيئاً مريئاً، من كانت له حاجة فليرفعها إلينا، وله عندنا قضاؤها على ما عز وهان مع المواساة إن شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وهكذا أنجز موسى قبل أن يدخل إفريقية حشد جيشه وأكمل استحضاراته الإدارية وساوى نفسه برجاله، وسار موسى متوجهاً إلى الغرب وكان الأمن غير مستتب، فلما وصل إفريقية برز موسى بن نصير قائداً منتصراً في فتح المغرب ويرجع ذلك إلى السياسة التي اتبعها مع الأهالي وهي سياسة التعاون والاندماج الكلي مع البربر، فحين كان يقدم على موسى وفود القبائل ليعلموا ولاءهم كان يولي عليهم رجلاً منهم ويأخذ رهائن من خيارهم لضمان هذا الولاء، كما فعل مع وفد كتامة ومع وفد مصمودة وغيرهم، ولكن ما أن يعتنق البربر الإسلام، كان موسى يقر زعمائهم في الرئاسة مقابل مساهمة كل قبيلة بعدد كان من المقاتلين للانضمام للمقاتلة العرب. وأعطت

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٤٥.

سياسة التفاهم هذه ثمارها، فقد استطاع موسى أن يجند أعداداً كبيرة من قبائل البربر مثل كتامة وهوارة وزناتة ومصودة، وألحق موسى بن نصير هؤلاء المقاتلة من البربر مع جراوة الذين كانوا قد جندوا في عهد حسان، ووضعهم جميعاً في حامية طنجة تحت قيادة طارق بن زياد الذي وليها سنة ٩٠ هـ من قبل موسى بن نصير، ومن الوسائل التي استخدمها موسى في تأليف القلوب وضبط الأمور، وتقوية الدولة الإسلامية:

١ - عتق بعض السبايا: كان موسى بن نصير يعتقد بعض سباياهم ويتولاهم في نطاق خطته لتشجيع البربر على الدخول في الإسلام، فكان يشتري من السبايا من كان في ظنه أن يقبل الإسلام.

٢ - تطبيق مبدأ المساواة: في النفل بين البربر المسلمين والعرب الذين أبلوا بلاء حسناً، وذلك تشجيعاً وتقديراً لبلائهم وبهذا التصرف تمكن موسى من جلب أعداد كبيرة إلى الإسلام وإشراكهم في الجيش الإسلامي.

٣ - التنظيم الإداري: ويبدو أن موسى بن نصير حين دخل إفريقية وجدها في حاجة ماسة إلى إدارة مستقرة، فقد انفردت كل قبيلة بربرية بناحياتها واستبدت بها دون أن تخضع لولاية أو عمال، فأخذ موسى يعمل على إخضاع كل المغرب إلى الحكم الإسلامي فبدأ ينقل البيزنطيين من المدن الساحلية والنواحي الداخلية وأسكنهم قرب مراكز الحكم الإسلامي مما يتيح للمسلمين مراقبتهم ودعوتهم وتعليمهم.

٤ - تكوين القوة البحرية: أنشأ حسان بن النعمان دار صناعة السفن بتونس ثم استكملها بعده موسى بن نصير وعبيد الله بن الحباب، ويذكر أنه صنع بها مراكب مما مكنه من غزو صقلية.

٥ - سك النقود: ويبدو أنه بادر بسك النقود بإفريقية، إذ يرى حسن حسني عبد الوهاب أن أول أمير سك النقود بإفريقية، هو

... وتتلخص أعمال موسى بن نصير في حرصه على نشر الإسلام بين البربر ولهذا كان يختار عمالاً يحسنون السيرة في أهالي المناطق المفتوحة^(١)، واختار فئة من أصحابه لتعليم البربر حديثي الإسلام، القرآن ومبادئ الإسلام. فقد أمر العرب أن يعلموا البربر القرآن وأن يفقهوهم في الدين، وذكر ابن عذارى أن موسى ترك سبعين رجلاً من العرب في طنجة يعلمون البربر القرآن وشرائع الإسلام.

وهذه السياسة هي استمرار لسياسة عقبة بن نافع وحسان بن النعمان. وهذا أدى إلى انتشار الإسلام في المغرب الأقصى. واستطاع موسى بن نصير بعد حملات جهادية منظمة السيطرة على جميع شمال إفريقية من برقة إلى المحيط الأطلسي وأصبح سيد إفريقية بدون منازع، وكان أولاده من ضمن قادته في فتوحاته الكبرى وكانت له حملات بحرية على جزر البحر الأبيض المتوسط ومن أشهر تلك الحملات ما سمي بحملة الأشراف بسبب اشتراك أشراف الناس فيها وكانت وجهتها جزيرة صقلية حيث بلغ عدد مقاتليها بين التسعمائة والألف وكانت بقيادة ابنه عبد الله الذي حقق نصراً حاسماً حتى غنم المسلمون غنائم كثيرة بلغ فيها سهم المقاتل مائة دينار ذهب. هذا ولم تقتصر حملات موسى بن نصير البحرية على مقاتلة إفريقية، بل شملت دعم الحملات البحرية في ولاية مصر، هذا وقد توجت هذه الانتصارات البحرية الرائعة التي حققها الأسطول الإسلامي بفتح بلاد الأندلس الذي خطط له موسى بن نصير ونفذه طارق بن زياد وتم بشكل نهائي بتوفيق الله ثم جهود

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٤٦، الصلابي، الدولة الأموية، (٣ / ١٣٩).

هذين القائدين العظيمين^(١).

وكتب موسى بن نصير إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك يستأذنه في فتح تلك البلاد، ويشرح له اضطراب أحوالها وأنّ الفرصة غدت مواتية بعد مؤامرة يوليان ضدّ لوذريق، غير أن الخليفة أمر موسى بأن يختبر الأندلس ويدرس أحوالها بنفسه بإرسال حملات استطلاعية إليها، وعهد موسى بن نصير إلى يوليان نفسه القيام بإغارة على جنوب إسبانيا ليتحقّق بذلك من أمرين: أولهما أن يوليان جادّ في دعواه ضدّ لوذريق، وكراهيته له ولحكومته في إسبانيا، وثانيهما: أن يعرف من المقاومة التي يتعرض لها يوليان مدى قوّة القوط وما لديهم من استعداد حربي، وقام يوليان فعلا بإغارة سريعة على جنوب إسبانيا، ورجع منها محمّلا بالكثير من الغنائم والسبي.

وأراد موسى بن نصير أن يقف بعد ذلك بنفسه على أحوال إسبانيا؛ فأعدّ حملة من المسلمين جعل على رأسها أحد قادته المشهورين بالمغامرة والشجاعة، وهو أبو زرعة طريف ابن مالك؛ فبعث هذا القائد إلى الأندلس في أربعمائة من خيرة الفدائيين، وذلك على سفن قدّمها لهم يوليان، ونزل المسلمون في جزيرة صغيرة اسمها بالوماس، وهي التي صارت تحمل بعد ذلك اسم القائد المسلم وعرفت بجزيرة طريف، وبادرت قوّة مكونة من أبناء غيطشة التي اشتركت في الحملة إلى مساعدة المسلمين وحراسة المضيق، وذلك في شهر رمضان عام ٩٢ هـ يوليو ٧١١م، وشنّ طريف من مركزه بتلك الجزيرة عدّة حملات استطلاعية على سواحل إسبانيا الجنوبية، حيث درس تحصيناتها وعرف الكثير من أحوال أهلها ومدى علاقتهم بحكامها من القوط، وأخيرا عاد طريف إلى بلاد المغرب

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٤٦ - ٤٧، الصلابي، الدولة الأموية، (٣ / ١٣٩).

فقدّم تقريراً مفصلاً عن إغاراته إلى موسى بن نصير، وشرح له في إسهاب أحوال إسبانيا، وقد أكّدت غارة طريف لموسى بن نصير صدق الأقوال التي نقلها إليه يولييان عن انهيار الأحوال في إسبانيا وافتقارها إلى أسباب الدفاع؛ بسبب انشغال القواد بملاذهم وانصرافهم إلى أعمال الطغيان وسلب ثروات البلاد لأنفسهم؛ فلم يلق طريف نوعاً من أنواع المقاومة، كما لم يقابل قوة من قوات القوط أثناء استطلاعها لأحوال جنوب إسبانيا، هذا إلى أن مبادرة أفراد بيت غيطشة إلى مساعدته وحرصاتهم لخطوط مواصلات المسلمين جاء دليلاً واضحاً على الانقسام الذي ساد الطبقة الحاكمة من القوط، وأن لودزيق لا يحكم إلا بالعنف والقسوة، وهو أمر لن يكفل له مقاومة المسلمين طويلاً عندما يبدأ الفتح الإسلامي للبلاد.

هذا إلى أن يولييان برهن مرة أخرى بما قدّمه من مساعدات لحملة طريف على أنه كاره فعلاً للودزيق، وأن المؤامرة التي دبّها مع أبناء غيطشة ضدّ هذا الحاكم المستبدّ مؤامرة لها خطرها، وأن خيوطها صحيحة وسليمة.

وبعودة حملة طريف انتهى موسى بن نصير من دور الحملات الاستطلاعية، وبدأ الإعداد الفعلي للفتح المنظم لإسبانيا، وأثبت موسى بن نصير مقدرة حربية فائقة في هذا السبيل؛ إذ دارت الاستعدادات الحربية التي قام بها دون أن يتسرّب أمرها إلى القوط، ودون أن يتنبّه يولييان نفسه إلى حقيقة أهدافها وجوهر مراميها؛ فقد استطاع موسى بن نصير أن يوهم يولييان بأن استعداداته الواسعة النطاق التي أعقبت حملة طريف ما هي إلا حملة قوية لمساعدة أبناء غيطشة ضدّ لودزيق، وأخفى عنه تماماً أنها ستكون الحلقة الأولى في سلسلة الفتح المنظم لإسبانيا، وأعدّ موسى بن نصير حملة مكوّنة

(١) المقرئ، نفح الطيب، ١/ ٢١٦.

من خمسة آلاف جندي حتى لا يثير كثرة عددها ريبة يوليان أو مخاوفه، وفي الوقت نفسه سار موسى بن نصير في ذلك الإعداد على النهج الذي سارت عليه الفتوح الإسلامية الكبرى في شتى الجهات، وهو القيام أولاً بإرسال حملة صغيرة العدد يتبعها إمدادات لا تنتهي - سواء من حيث الكثرة أو حسن الاستعداد - حتى يتم تحقيق الأهداف الحربية، وانتدب موسى لقيادة هذه الحملة الأولى على الأندلس أحسن قادة المسلمين إذ ذاك وأشدّهم ثقة به وهو: طارق بن زياد.

جاء اختيار موسى بن نصير لطارق بن زياد لقيادة هذه الحملة خطوة موفّقة، وأكّد بعد نظر موسى وسعة خبرته الحربية؛ فطارق من البربر الذين عرفوا أرض الأندلس معرفة وثيقة؛ لأنهم يرونها امتداداً لبلادهم لا فارق بين بيتها وبيتهم، يضاف إلى ذلك أن طارقاً هو الذي تولّى بنفسه جمع المعلومات عن بلاد الأندلس، وتولّى مفاوضات يوليان، وصار خبيراً بالميدان الجديد في سائر نواحيه الحربية والسياسية، وعمل موسى بن نصير على أن يشدّ أزر طارق الذي عهد إليه بالقيادة العليا للحملة؛ إذ ضم إليه هيئة من كبار رجال الحرب من العرب والبربر ليكونوا بمثابة مجلسه الاستشاري ومساعديه في إدارة المعارك، ومن أولئك القادة العرب: عبد الملك بن أبي عامر المغافري، وعلقمة اللخمي، وأحد موالي الخليفة الوليد بن عبد الملك واسمه مغيث الرومي، وكان القائد الأخير يعتبر مندوب الخلافة الحربي في تلك الحملة التي أعدّها موسى بن نصير، وحلقة الاتصال بين السلطات المركزية في دمشق ومقرّ القيادة الإسلامية في القيروان، وكأف موسى ابن نصير بعد ذلك يوليان بأن يقدّم للقوات الإسلامية السفن اللازمة لنقلها إلى إسبانيا، كما يتولى حراستها ويقوم بمهمة الدليل لها، وكان السبب في إصرار موسى بن نصير على الاعتماد في نقل الجند بسفن يوليان هو حرصه الشديد على إخفاء تحركات هذه الحملة عن العيون والجواسيس؛ فالأسطول

الإسلامي كان قد تمّ إعداده على عهد موسى ابن نصير، وصارت له قاعدة هامة في تونس، كما ظهر نشاطه في السيطرة على الجزر الهامة في غرب البحر المتوسط، ولذا كانت تحركات هذا الأسطول محطّ أنظار الجميع ولا يمكن إخفاء أمرها، ولما كان موسى بن نصير يستهدف مفاجأة القوط بالأندلس لم يكن أمامه سوى الاعتماد على سفن يوليان التي لا تثير الريبة في نفوس من يشاهدها وهي تعبر بحر الزقاق (مضيق جبل طارق)، وكان لدى يوليان أربع سفن لا تتسع لنقل أفراد الحملة مرّة واحدة، ولذا تمت عملية عبور بحر الزقاق على دفعات، وأخذت كل جماعة يتمّ نقلها تختفي في جهات خصّصت لها على الشاطئ الأسباني، حتى انتهى الجميع من العبور وذلك عام ٩٢ هـ (٧١١م)^(١).

وبادر طارق بن زياد بتحسين القاعدة الأولى التي استولى عليها في جنوب إسبانيا قبل التوغّل في داخل البلاد، ثم استولى على بلدة الجزيرة الخضراء قبالة جبل طارق، وصار بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) في قبضة المسلمين وعلى اتصال وثيق بسبنة قاعدة الاتصال الأولى ببلاد المغرب.

وتمت المرحلة الأولى بذلك من نزول الحملة الإسلامية في إسبانيا دون مقاومة تذكر، وكان السبب في ذلك هو أن موسى بن نصير اختار وقت قيام حملة طارق وفق أدقّ المعلومات التي وصلته، وكانت المخابرات الإسلامية تتبّع حركات لودزيق وتتحيّن الوقت المناسب لبدء الحملة، وسرعان ما سنحت الفرصة حين ذهب لودزيق إلى أقصى شمال إسبانيا ليخمد ثورة قام بها سكان جبال البرانس المعروفة باسم القبائل البسقاوية، وكانت تلك الجموع القبلية مشهورة بالمراس وقوة الشكيمة، مما جعل لودزيق يأخذ معظم جيشه

(١) ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس، ص ٨٨ - ٩٠، المقرئ، نفع الطيب، ٢٣٧ / ١ - ٢٣٨.

معه، وأصبح جنوب إسبانيا خاليا تماما من أسباب الدفاع عنها؛ ولذلك لم تشعر سلطات القوط بنزول المسلمين في جنوب البلاد إلا بعد أن استقرت دعائمهم ومكّنوا لأنفسهم على بحر الزقاق، فعبأت قوات سريعة وأرسلتها على عجل للهجوم على المسلمين تحت قيادة (بنج) المعروف باسم (بنشو) في المراجع الأسبانية، ولكن القوط لقوا هزيمة فادحة لم ينج منهم إلا واحد استطاع الهرب والذهاب إلى معسكر لوزريق في أقصى الشمال، ونقل إليه أنباء تلك الكارثة وهجوم المسلمين على البلاد، وكان لوزريق يقيم في مدينة بنبلونة بأقصى الشمال حيث يدير الحرب ضد القبائل البسقاوية، ولذا صمّم العودة سريعا إلى الجنوب والهجوم على المسلمين قبل أن يتوغّلوا في داخل البلاد، وكان لوزريق من أشهر رجال القوط في ميدان الحروب؛ إذ قدر تماما الخطر الذي أحاط بدولته بسبب نجاح المسلمين في اتخاذ قاعدة لهم عند جبل طارق، وأدرك أنهم جاؤوا للفتح وليس للإغارة من أجل السلب والنهب والحصول على المغنم كما راجت الإشاعات بذلك، ومن ثم عمد إلى جمع صفوف القوط لمواجهة المسلمين؛ فاتصل بأبناء غيطشة وصالحهم ليكونوا جميعا يدا واحدة، ولكن أعمال لوزريق في تلك السبيل جاءت متأخرة؛ لأن بيت غيطشة ظلّ على ولائه سرّا للخطة التي وضعها يوليان، ولم ينس ما حلّ به من أذى واضطهاد وتشريد على يد لوزريق، وفي الوقت نفسه ظلّ أبناء هذا البيت في اعتقادهم أن المسلمين لم يأتوا للفتح ولكن للحصول على المغنم مقابل مساعدتهم في القضاء على لوزريق، وزحف لوزريق بجيشه سريعا واحتلّ قرطبة؛ ليحول بين المسلمين وبين الاستيلاء عليها؛ لأنها المفتاح الذي يسيطر على سهول الأندلس الجنوبية الشرقية، ويمكن لصاحبها من الاستقرار في البلاد (١).

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٨، المقري، نفع الطيب، ١ / ٢٣٩.

وكان طارق بن زياد يريد فعلا الاستيلاء على قرطبة؛ فقد زحف على هذه المدينة بعد انتصاره في جنوب إسبانيا، وسلك الطريق المارّ بجزيرة طريف (الجزيرة الخضراء) ثم زحف شمالا بعد ذلك حتى اقترب من بحيرة الخندق التي يخترقها نهر صغير يسمى البرباط، وفي ذلك المكان مدينة صغيرة سمّاها المسلمون (بكة) ونسبوا إليها النهر الذي صار يعرف باسم وادي بكة، وحرف بعض المسلمين هذه التسمية إلى وادي لكّة، وعند وادي بكة عرف طارق ابن زياد عن طريق عيونه أن لوذريق علم نبأ الحملة الإسلامية وأنه وصل إلى قرطبة واستولى عليها، كما أنه تابع زحفه جنوبا واتخذ معسكره عند بلدة شذونة في سهل البرباط، وأنه صار بذلك على أهبة القتال، وذكرت بعض المراجع أن جيش القوط بقيادة لوذريق بلغ عدده مائة ألف مقاتل وضمّ عددا عظيما من الفرسان، ويرجح أن هذا العدد مبالغ فيه، وأدرك طارق بن زياد أن العدد الذي معه من جند المسلمين لا يكفي لقتال قوات لوذريق الهائلة؛ ولذا أرسل إلى موسى بن نصير يشرح له الموقف ويطلب إليه إرسال الإمدادات بسرعة، فأمدّه موسى بن نصير بحملة عددها خمسة آلاف مقاتل بقيادة طريف بن مالك الذي قاد أول حركة

والصدق، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيوشه، وأسلحته وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم، وإن امتدّت بكم الأيام على افتقاركم، ولم تنجزوا لكم أمرا ذهبت ربحكم وتعوّضت القلوب عن رعبها فيكم الجرأة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية؛ فقد أقلت به إليكم مدينته الحصينة، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت، وإني لم أحذرکم أمرا أنا عنه بنجوة، ولا حملتكم على خطة أرخص متاعا فيها للنفوس أبدا بنفسي، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشقّ قليلا استمتعتم بالأرفة الألدّ طويلا، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي؛ فما حظكم فيه بأوفى من حظّي، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات في الدرّ والمرجان والحل المنسوجة بالعقبان، المصورات في قصور الملوك ذوي التيجان، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عربانا، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا؛ ثقة منه بارتياحكم للطعان واستماحكم بمجالد الأبطال والفرسان؛ ليكون حظّه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة، وليكون مغنمها لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم، والله تعالى ولي أنجادكم على ما يكون لكم ذكرا في الدارين.

أيها الناس: ما فعلت من شيء فافعلوا مثله؛ إن حملت فاحملوا، وإن وقفت فقفوا، ثم كونوا كهيئة رجل واحد في القتال، وإنّي عامد إلى طاغيتهم بحيث لا أنهيه حتى أخالطه وأمثل دونه؛ فإن قتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا ولا تنازعوا فتنفشلوا وتذهب ربحكم وتولوا الدبر لعدوكم فتبدوا بين قتيل وأسير، وإياكم إياكم أن ترضوا بالدنية، ولا تعطوا بأيديكم وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة الراحة من المهانة والزلة، وما قد أجل لكم من ثواب الشهادة فإنكم إن تفعلوا - والله

معكم ومفيدكم - تبوؤوا بالخسران المبين وسوء الحديث غدا بين من عرفكم من المسلمين، وها أنا ذا حامل حتى أغشاه؛ فاحملوا بحمليتي (١) ”

وفي الوقت الذي أثرت فيه خطبة طارق تأثيرا كبيرا في نفوس جنوده ورفعت من روحهم المعنوية كانت العناصر الحانقة على لوزريق تحدث أعمالها وتدفع بكثير من أولئك الغاضبين إلى الانضمام إلى جيش طارق، ووقف الفريقان على ضفتي النهر أخيرا استعدادا للقتال، وكان المسلمون ببساطتهم ويقظتهم موضع الهيبة في النفوس، على حين كان منظر القوط يدعو إلى السخرية والازدراء؛ إذ جلس لوزريق في عربة مطهمة يجرها جوادان وعليه أثواب الحرير البراقة، وهو يحاول عبثا بثّ روح الحماسة في جنده، وكان في جيشه اثنان من إخوة غيطشة، وهما: أبه وششبرت اللذان صالحهما بغية توحيد صفوف القوط، وجعل أحدهما على الخيالة التي كانت عماد جيش القوط، وفي يوم الأحد ٢٨ من رمضان عام ٩٢هـ (١٩ يوليو ٧١١م) بدأت المناوشات بين الجانبين على وادي البرباط بالقرب من بلدة شذونة، واستمرت المناوشات ثلاثة أيام أظهر فيها كل من الجانبين الكثير من ضروب الشجاعة والبسالة دون أن يحصل أحدهما على نصر يذكر، غير أن أتباع يولييان نشطوا في أثناء القتال وبثّوا رجالاتهم وسط جند لوزريق ليصرفوهم عنه ويؤكدوا لهم أن المسلمين لم يأتوا إلى الأندلس للفتح والاستقرار ولكن للقضاء على هذا الطاغية، وأنه إذا تمّ القضاء على حكم لوزريق عادت البلاد ملكا لهم ينعمون بخيراتها، ونجحت دعايات يولييان بين فرسان القوط، خاصة تلك التي كان يتولى قيادتها أحد إخوة غيطشة ملك القوط السابق الذي قضى عليه لوزريق.

(١) المقرئ، نفح الطيب، ١ / ٢٢٥.

وفي اليوم الرابع من المعركة ظهرت نتائج دعايات يوليان بين صفوف جيش لوزريق؛ فقد تخلى عنه جماعات الخيالة التي كانت العامود الفقري للعمليات الحربية، وأدى ذلك إلى وقوع الاضطراب بين سائر جند القوط وهرب الكثيرون منهم طلبا للنجاة، هذا إلى أن غالبية الجيش اشتملت على أعداد كبيرة من العبيد الساخطين على حكم القوط المتمنين زواله، ووجدوا في تلك المعركة فرصتهم للخلاص مما حلّ بهم من ظلم واضطهاد، ولما أخذت مظاهر الفوضى تسود الجيش بسبب انسحاب الخيالة تراخى العبيد عن القتال وانتهت المعركة بانتصار المسلمين.

وفرّ لوزريق تاركا عددا كبيرا من القتلى على أرض الميدان، وحسب البعض أن لوزريق غرق في النهر الذي دارت المعركة بقربه؛ لأن الجند وجدوا على الشاطئ بعد انتهاء القتال خفّه دون أن يعثروا له على أثر، غير أن لوزريق أبى الاستسلام بعد الهزيمة الساحقة التي نزلت به، وفرّ إلى داخل البلاد دون أن يكشف أحد أمره، مستهدفا جمع فلول القوط مرة أخرى والانتقام ممن انضمّ من رجاله إلى المسلمين، وبعث طارق بأنباء انتصاراته إلى موسى بن نصير الذي أبلغها بدوره إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك، وبدأت راية الإسلام تعلق خفاقة فوق غرب أوربا للمرة الأولى في التاريخ (١)

وأحدث انتصار طارق بن زياد في وادي لكة دوبا هائلا في المشرق والمغرب، وازدادت قوات طارق بن زياد بعد معركة وادي بكة؛ لأن الإمدادات انهالت عليه من المغرب، وكان لا بد لطارق أن يجني ثمار جهاده وانتصاره في وادي لكة، قبل أن تجتمع فلول القوط مرة أخرى، فرأى طارق أن يتابع زحفه دون إبطاء ليستولي على قرطبة ويقضي على ما بها من بقايا جيش القوط، غير أنه لقي في

(١) ابن عبد الحكم، فتوح المغرب والأندلس، ص ٩٦، ابن عذاري، البيان المغرب، ١٠ / ٢.

الطريق إلى هذه المدينة مقاومة عنيفة جعلته يعدل عن خطته ويبادر بالاستيلاء على طليطلة عاصمة دولة القوط ويتوج بذلك انتصاراته في إسبانيا، وكان السبب في هذا التطور الجديد هو ما بلغ طارق من أن أنصار لودزيق حين ترامت إليهم الشائعات بأن ملكهم لم يقتل بدعوا يجمعون صفوفهم مرة أخرى في طليطلة لمقاومة المسلمين.

ومن ناحية أخرى أخذ أنصار الملك السابق غيطةشة يجتمعون في طليطلة ويتشاورون فيما بينهم لإعلان أحدهم ملكا مكان لودزيق المهزوم، ولذا عجل طارق بإرسال جزء من جيشه للاستيلاء على قرطبة ليحتمي ممتلكاته بجنوب إسبانيا، على حين انطلق بنفسه سريعا إلى طليطلة قبل أن يتمكن أتباع لودزيق من تحصينها، وقبل أن يصل أبناء غيطةشة أيضا إلى قرار يصعب على المسلمين مواجهته، ذلك أن بيت غيطةشة ظلّ واهما حتى تلك الأحداث بأن المسلمين ما جاؤوا إلا للمغانم مقابل مساعدة أبناء غيطةشة للوصول إلى العرش، واستولى طارق بن زياد على مدينة طليطلة في سهولة ويسر؛ لأن القوط آثروا تجنب لقاء المسلمين انتظارا لما تسفر عنه استعداداتهم، وحاول طارق أن يتتبع فلول القوط الهاربة من طليطلة حتى بلغ مدينة أطلق عليها (المائدة) على مقربة من هنارس، وهناك عثر المسلمون على كنز ثمين، عبارة عن مذبح كنيسة طليطلة المحلى بأعلى ما كان لدى القوط من الذهب والجواهر، غير أن طارقا اضطرّ إلى العودة إلى طليطلة لأن الصيف كان قد انقضى؛ فأثر البقاء في العاصمة دون أن يعرض جنده لبرد الشتاء القارس، وفي طليطلة بلغه أن جيشه الذي بعث به إلى قرطبة قد استولى عليها^(١).

وقد شعر موسى بن نصير أن زحف طارق وراء فلول القوط

(١) المقري، نفع الطيب، ١ / ٢٤٤ - ٢٤٨، ٢٧٠، ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ١٧، ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس، ص ٩٤، حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص ٧٨.

يوشك أن يعرض الفتوح الإسلامية في البلاد الأسبانية المترامية الأطراف لخطر محقق، ذلك أن خطوط مواصلات المسلمين فيما بين طليطلة والجزيرة الخضراء وبلاد المغرب صارت غير آمنة؛ لأن المعقل الكبرى المبعثرة على امتداد تلك الخطوط لم تخضع للمسلمين، ولم يسيطر طارق إلا على قرطبة فقط من بين تلك المعقل المتعددة، هذا إلى أن قرطبة لم يكن بها سوى حامية صغيرة لا تستطيع أن تؤدي رسالتها كما ينبغي إذا انبعثت أية حركة مقاومة بين صفوف القوط، وأول من شعر بالخطر الذي بات يهدد المسلمين في إسبانيا هو القائد يولييان الذي قام إذ ذاك في الجزيرة الخضراء ليؤمن خطوط مواصلات المسلمين بين إسبانيا والمغرب، وذلك في الوقت الذي اندفع فيه طارق بن زياد إلى طليطلة عاصمة القوط، فقد بعث يولييان مجموعة من رجاله مع المسلمين عند توغّلهم في البلاد، واستطاعت بفضل خبرتها وأهلها أن تدرك ما يدور في نفوس القوط من غدر، وأنهم يتجمعون وفق خطة مرسومة لإنزال الهزيمة بالمسلمين، أفضى يولييان إلى طارق بما جاءه من أخبار وطلب منه القيام بعمل حاسم لتأمين ظهر جيوشه، غير أن طارقا أثر البقاء في طليطلة دون القيام بأية أعمال توسيعية، ثم كلف يولييان بأن يتصل بموسى بن نصير في القيروان ويطلب إليه سرعة المجيء إلى إسبانيا لإنقاذ الموقف.

ولما جاءت استغاثة طارق إلى موسى بن نصير أدرك أن مخاوفه من انطلاق طارق في فتوحه بعد معركة وادي بكة لها ما يسوغها، وأسرع موسى بإعداد جيش مكوّن من ثمانية عشر ألفاً من خيرة جنده، وكان معظمهم من العرب والبربر الذين عرفوا بقوة الشكيمة وشدة المراس، وممن اشتهروا ببلائهم في ميدان الحروب ببلاد المغرب، وغادر موسى بلاد المغرب على عجل، وقسم موسى بن نصير جيشه بحسب القبائل ليسهل عبورها إلى الأندلس دون أن تقع فوضى في صفوف الجند، وفي رمضان عام ٩٣هـ (يونيه ٧١٢م)

كان موسى بن نصير قد غادر المغرب ووصل إلى الجزيرة الخضراء في الأندلس، وشيّد بها مسجداً وانتظر هناك حتى تمّ عبور سائر الجند واطمأنّ على سلامتهم وحسن ترتيبهم^(١).

وفي تلك الأثناء أسرع يوليان إلى لقاء موسى بن نصير وعقد معه مجلساً حربياً للتشاور في هذا الموقف الخطير، وقرر هذا المجلس الحربي أن الضرورة تقضي بالسيطرة أولاً على المعقل التي تركها طارق والتي باتت خطراً يتهدد المسلمين، وبعث موسى بن نصير عقب هذا المجلس الحربي الهام رسالة إلى طارق بن زياد يأمره فيها بالانتظار في طليطلة، وألا يقوم بعمل حربي إلا بإشعار آخر. وردّدت بعض المراجع أن موسى لم يقدم على هذا العمل والعبور إلى الأندلس إلا منافسةً لطارق ورغبة استتبتت به لينال بدوره نصيباً كبيراً من الغنائم، وأن الحسد كان يأكل قلبه، وأنه صمّم على محاسبة طارق على أعماله، وأنه رأى أن يتولى بنفسه فتوحاً أخرى أعظم مما قام به هذا القائد.

وقد وقعت تلك المراجع في هذا الخطأ الفاحش لأنها صوّرت موسى وطارقا تصوير القائدين المختلفين، وأنّ كلا منهما كان يعمل دون علم الآخر، والمعروف أن طارقاً لم يقم بما قام به من أعمال حربية إلا باسم موسى بن نصير الذي تولى القيادة العليا ورسم الخطط، وأمدّ طارقاً بكل المساعدات الحربية ولا سيما في ساعة الخطر بعد معركة وادي بكة، هذا إلى أن طارق بن زياد كان يرسل إلى موسى بن نصير عن طريق يوليان أنباء تقدّم المسلمين خطوة خطوة، مما جعل القيادة العليا في القيروان تتابع الأحداث عن كثب، ومن ثمّ لم يكن هناك سبب يدعو موسى لأن يحقد أو يحسد طارقاً على ما تمّ على يديه من فتح؛ لأنه شارك في هذا الفتح وأعدّ خططه، هذا إلى أن موسى لم يكن يتطلع بعبوره إلى الأندلس إلى الحصول

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ١٩، ابن قتيبة الإمامة والسياسة، ص ١٢٤.

على مغانم؛ لأن توزيع الغنائم وغيرها من ممتلكات القوط كان هو المرجع الأخير فيه.

والحقيقة أن موسى بن نصير باعتباره القائد الأعلى قد أفرغه زحف طارق السريع بعد معركة وادي بكة، وتعريضه خطوط مواصلات المسلمين لخطر محقق؛ بسبب تركه الكثير من المعازل والمدن الهامة جريا وراء مطاردة القوط، ولذلك بادر موسى برسم خطة للسيطرة أولا على المراكز الحربية وغيرها في المدن التي كانت تهدد خطوط مواصلات المسلمين، وليدعم فتوح المسلمين قبل الذهاب إلى طارق في طليطلة.

وتنهض هذه الخطة التي وضعها موسى دليلا على أنه لم يكن يهدف إلى القيام بفتوح جديدة تغطي أخبارها وعظمتها ما قام به طارق، وأن مجيئه إلى الأندلس كان ضرورة حربية ملحة وإصلاح خطأ وقع فيه قائده طارقولو كان موسى بن نصير يقص من وراء جوازه إلى الأندلس تأديب طارق لكان قد جاز إليه في رفقة عدد قليل من المسلمين، ولأسرع للقائه، ولكن موسى جاز الزقاق في جيش أضخم بكثير من جيش طارق، ومضي يفتح مدن الغرب، ويقضي على مراكز المقاومة طوال هذا العام، قبل أن يلتقي بطارق بن زياد، كل ذلك إن دل على شيء فعلي أن موسى كان ينوي إتمام فتح الأندلس وفقا لخطة رسمها هو وطارق ويوليان، ولو كان موسى يضمم في نفسه شرا لطارق، مدفوعا في ذلك بعوامل الغيرة والحسد، لما عبر الزقاق بعد عام كامل من زول طارق إلى الأندلس، ولما سلك طريقا غير الطريق الذي سلكه من قبل، وكان أسرع إلى لقائه كف يده، بدلا من إضاعة وقته في إفتتاح مدن الغرب القوية، مثل إشبيلية وماردة، ولبلة، وباجة (١).

والحقيقة أنه إن كان حدث شيء فلا يعدو أن يكون مناقشة

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٩٢.

القضايا أو استفهامه من طارق خطته وإبداء الملاحظات عنها، تخوفاً من الأذى، وعندما استفسر موسى من طارق عن سبب الايغال والتقمح في بلاد العدو، اعتذر إليه طارق بخطته العسكرية أمام الظروف المحيطة والضرورة الداعية لأسلوبه، وقبل موسى عذره. وسارا بعده - سوية إخوة مجاهدين، ينشرون دين الله ويُعلون كلمته ويبلغون للناس شريعته، كما لا ننسى أن طارق جندي من جنود موسى والانتصارات التي حققها طارق إنجازات تكتب في صفحة موسى القيادية.

واستطاعت الإدارة الإسلامية التي شيدها موسى بن نصير أن تضع الحجر الأساسي لبناء الحضارة الإسلامية في إسبانيا، وجعلت من تلك البلاد أعظم مركز للإشعاع الحضاري في أوروبا في العصور الوسطى، ومن ثم أخذت إسبانيا تخطو سريعا في مضمار الازدهار العلمي وتدخل سجل التاريخ باعتبارها الشريان الذي نقل إلى أوروبا ثمار الحضارة الإسلامية ومعارفهم، وهياً لسكان غرب أوروبا السبيل للخروج من جهالة العصور الوسطى إلى نور الإسلام وضوء الحضارة الإسلامية الساطع.

وقد استغرق الفتح الإسلامي لإسبانيا ثلاث سنوات وبضعة شهور؛ إذ بدأ الفتح الإسلامي لإسبانيا في رجب عام ٩٢ هـ وتم في ذي القعدة عام ٩٥ هـ.

ويلاحظ أن العرب أطلقوا اسم الأندلس على المناطق التي كانوا يسيطرون عليها من شبه جزيرة أيبيريا، ولا زال اسم الأندلس يطلق على الجزء الجنوبي منها.

وبعد أن تمكن موسى بن نصير وطارق بن زياد من توطيد أركان الدولة الإسلامية في الأندلس جاءه مندوب الخلافة وهو مغيث الرومي، ومعه أمر من الخليفة الوليد بن عبد الملك لكل من موسى بن نصير وطارق بن زياد بالمجيء إلى البلاط ومقابله شخصيا في

دمشق فاختار موسى بن نصير مدينة أشبيلية حاضرة للبلاد وعين ولده عبد العزيز واليا على الأندلس، واستخلف على المغرب الأقصى ابنه عبد الملك، كما استخلف على إفريقية ابنه عبد الله، ثم غادر موسى بن نصير الأندلس وبصحبه طارق بن زياد وكبار الجند في ذي القعدة عام ٩٥ هـ (٧١٤م)، ويقال إن يوليان كان معهم.

وكان موكب موسى بن نصير إلى دمشق من الموضوعات التي أفاض في وصفها الرواة والإخباريون العرب، ونقلها المؤرخون مثل ابن عبد الحكم، وابن قتيبة، وابن القوطية، والمراكشي، وابن عذارى، وابن خلكان، والمقري، وابن الأثير، ويقال: إن موكب موسى بن نصير اشتمل فيما عدا حاشيته الخاصة على أربعمائة من أفراد الأسرة القوطية المالكة وأسر النبلاء؛ تزين رؤوسهم التيجان وتطوق أوساطهم الأحزمة الذهبية، ومعهم جموع من العبيد والأسرى يحملون نفائس الغنائم^(١).

وعندما اقترب موسى من دمشق وصلته رسالتان كان لهما أكبر الأثر في اختتام حياته فيما بعد، أما الرسالة الأولى فكانت من ولي العهد سليمان بن عبد الملك يطلب فيها من موسى بن نصير أن يبطن في الحضور إلى دمشق؛ لأن الخليفة الوليد بن عبد الملك مريض مرض الموت وفي أيامه الأخيرة، وبذلك يحظى سليمان عندما يعتلي العرش باستقبال أعظم موكب للنصر عرفه الإسلام، ولكن موسى بن نصير رفض الاستجابة لهذا الطلب وتابع سيره إلى دمشق، وبعد ذلك بقليل تسلم الرسالة الثانية وكانت من عند الخليفة الوليد نفسه يأمره فيها بالإسراع بالحضور إلى دمشق حتى لا تحرمه المنية من شرف مشاهدة موكب النصر القادم على عاصمة الخلافة، وليتوج أيامه الأخيرة بهذا النصر المظفر^(٢).

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ٢ / ٣٠، المقري، نفح الطيب، ١ / ٢٦٢.

(٢) المقري، نفح الطيب، ١ / ٢٦٢.

ودخل موسى بن نصير مدينة دمشق في السادس والعشرين من يناير عام ٧١٥م جمادى الأولى عام ٩٦هـ، أي: قبل وفاة الخليفة الوليد بأربعين يوماً، وحرص موسى على أن يشرف بنفسه على طريقة سير الموكب وارتداء المشتركين فيه بثيابهم وبطريقة عرض الكنوز والغنائم، وأمر موسى بالأموال والجواهر واللؤلؤ والياقوت والزبرجد والجزع والوطاء والكساء المنسوج بالذهب والفضة المحرشة باللؤلؤ والياقوت والزبرجد وضمّها إلى موكب النصر مع رجاله بأرديتهم الجميلة الزاهية، ثم أقبل موسى بالذين ألبسهم التيجان حتى دخل مسجد دمشق والوليد على المنبر يحمد الله، وكان الخليفة يعاني في تلك الأيام من وطأة المرض ومع ذلك أبى إلا أن يخرج إلى المسجد متحملاً لأجل قدوم موسى بن نصير، ولما رأى الخليفة هذا الموكب استولت عليه الدهشة والعجب الشديد وصاح الحاضرون من الناس: موسى موسى!، وأقبل هذا القائد المظفر حتى سلّم على الخليفة ووقف ثلاثون رجلاً من أصحاب التيجان في موكب النصر عن يمين المنبر وشماله، على حين وقف أمام الخليفة سائر أفراد الموكب ومراكب الغنائم المقامة على عجل، وهزّ هذا المنظر الباهر قلوب الحاضرين ومشاعرهم كما أثار ذكرياتهم عن فتوح المسلمين الكبرى، وقالوا إن الدولة الإسلامية لم تشهد منذ فتح فارس مثل هذا الموكب الرائع، ومثل تلك الغنائم الوافرة، وأخذ الخليفة يلقي خطبته في هذا المشهد الحافل وأكثر فيه الحمد لله والثناء عليه والشكر لما أيده الله ونصره، وأذهل موسى الناس بما أتى به من الخيرات والغنائم والأسرى، وكان موكب النصر هذا موكباً مشهوداً؛ إذ لم ير الناس من قبل مثل هذا العدد من أمراء الغرب والأسرى الأوربيين، وقد جاؤوا يقدمون الولاء والطاعة لأمير المؤمنين.

وكان من أبرز ما قدّمه موسى بن نصير إلى الخليفة الوليد من الغنائم التذكارية النفيسة مائدة تفوق قيمتها كل تقدير، كان طارق بن زياد قد غنمها من كاتدرائية طليطلة، وكان القوط قد تفننوا في

صنعها فنسبها العرب إلى سليمان بن داود، وإنما أطلق عليها هذا الاسم كناية عن قدمها وعظم شأنها.

وكان مما قدّم للخليفة الدر والياقوت أكبالا والسيوف المحلاة بالجواهر والتيجان الذهبية المرصّعة بالحجارة الثمينة وأنية الذهب والفضة، وغير ذلك مما لا يحيط به وصف.

وقد أغدق الخليفة الخلع على موسى ثلاث مرات تشريفاً له، كما أغدق المنح لآل بيته، ولما انتهى الخليفة من منح موسى براءات الشرف والتكريم استأذن منه هذا القائد العظيم في تقديم المشتركين معه في موكب النصر فأدخل عليه موسى ملوك البربر وملوك الروم وملوك الأسبان وملوك الفرنجة، ثم أدخل عليه رؤوس البلاد ممن كان معه من قريش والعرب؛ فأحسن الخليفة لهم العطايا والمنح^(١).

ومن الأسباب التي ذكرت في سبب استدعاء موسى إلى دمشق تخوف الوليد على المسلمين أن يكونوا في أرض منقطعة، ومحاطة بمناطق غير إسلامية وعلى اتصال بها، هي أقرب إليها من العالم الإسلامي أو مراكز ارتباطه واستمداده وهو الذي رأيناه عارض فتح الأندلس خوفاً على المسلمين أن يخوضوا المخاطر ويركبوا المهالك حتى بين له موسى ألا داعي للخوف، ويرى الكثير من المؤرخين أن موسى بن نصير لم يكن يعتزم التوقف في فتوحاته عند هذا الحد وإنما كان يخطط لعبور جبال البرانس واحتياح أوروبا كلها والوصول إلى القسطنطينية وفتحها من جهة الغرب لولا أن استدعاه الخليفة الوليد إلى دمشق وأمره بالتوقف بالفتح عند هذا الحد، ويؤكد المؤرخون أنه لو قد قدر لموسى ابن نصير أن يمضي قدماً في مشروعه هذا لتغير شكل النظام الدولي تماماً ولقضى على القوى غير الإسلامية، ذلك أنهم باستقراءهم النظام الدولي وقتئذ فإنهم يؤكدون أن احتمالات نجاح مشروعه هذا كانت عالية جداً، إذا لم

(١) المقرئ، نفح الطيب، ١ / ٢٦٢.

تكن الظروف مواتية لنجاحه مثلما كانت مواتية وقتها، فمملكة الفرنجة كانت مشغولة وقتها بصراعاتها مع الممالك الأخرى ولم يكن هناك كيان سياسي واحد في أوروبا كلها يعادل قوة الدولة الإسلامية أو حتى بدايتها، ويشير هؤلاء المؤرخون إلى أنه لما قدر للمسلمين في هذه المنطقة قائد كفء بعد عشرين عاماً من ضياع هذه الفرصة كانت الظروف الدولية قد تغيرت لغير صالح المسلمين، فلما حاول هذا القائد إحياء مشروع موسى بن نصير هزم هزيمة ضخمة تدخل في تاريخ العلاقات الدولية بوصفها نقطة تحول وهي معركة بلاط الشهداء، وقد تكرست الآثار السلبية لعدم استكمال موسى بن نصير لمشروعه بفشل حصار المسلمين للقسطنطينية بعد ذلك بسنوات قليلة وهو ما أغلق أوروبا أمام المسلمين من الشرق بعد أن كانت قد أغلقت أمامهم من الغرب^(١).

ولقد فشل المحللون في تفسير سبب استدعاء الخليفة الوليد لموسى ابن نصير، فبعضهم قائل إنه أشفق على المسلمين من مخاطر هذا المشروع البحري، وبعضهم الآخر يؤكد أن الخليفة إنما خاف على سلطانه من تصاعد نفوذ وقوة موسى بن نصير وسواء صحت هذه التفسيرات أو أخطأت، فإن ما حدث بالفعل بعد استدعاء موسى بن نصير إلى دمشق، هو تفويض هدف مصيري للأمة أضعفت فيه فرصة ثمينة في فتح أوروبا وجعلها تحت نفوذ الدولة الإسلامية^(٢).

- خاتمة موسى بن نصير وطارق بن زياد رحمهما الله تعالى :

... تخبطت الروايات في الحديث عن نهاية موسى وما لقيه من الخليفة سليمان من الأذى والغمط والنكران وفي هذه الروايات

(١) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس (٥٤/١) الصلابي، عمر بن عبد العزيز - (١٥٩ / ٣).

(٢) الصلابي، عمر بن عبد العزيز، (٣ / ١٦١).

غموض وتشويش وتناقض ومبالغات كبيرة، والصحيح أن سليمان كان عاتباً على موسى، لأمر لا نستطيع تحديده على وجه الدقة ثم رضي عنه سليمان وقربه منه وأصبح من خاصته، ولا يمكننا أن نصدق أن يعاقب سليمان تابعياً جليلاً كموسى بن نصير، أسس ملكاً من عدمه، وقضى سني حياته مجاهداً في سبيل الله، لمجرد قالة ظالمة أو وشاية في حقه، ولو كان سليمان فعل ذلك لكان أولي به أن يعاقبه بعزل أبنائه الثلاثة عن المغرب والأندلس، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث، بل إن سليمان بن عبد الملك كان يصطحب موسى بن نصير معه في نزحاته^(١)، وكانت بينه وبين سليمان محاورات وتساؤلات فقد قال له سليمان يوماً: ما كنت تفرع إليه عند الحرب؟ قال الدعاء والصبر، قال: فأبي الخيل رأيت أصبر؟ قال: الشفر، قال: فأبي الأمم أشد قتالاً؟ قال: هم أكثر من أن أصف؟ قال: فأخبرني عن الروم، قال: أسد في حصونهم عقبان على خيولهم، نساء في مراكبهم، إن رأوا فرصة انتهزوها، وإن رأوا غلبة، فأوعال تذهب في الجبال، لا يرون الهزيمة عاراً. قال: فالبربر؟ قال: هم أشبه العجم بالعرب لقاءً ونجدةً وصبراً وفروسيةً، غير أنهم أغدر الناس قال: فأهل الأندلس؟ قال: ملوك مترفون وفرسان لا يجبنون، قال: فالفرنج؟ قال: هناك العدد والجلد والشدة والبأس، قال: فكيف كانت الحرب بينكم وبينهم؟ قال: أمّا وهذا فوالله ما هُزمت لي راية قط ولا بُدّ لي جمع، ولا نُكبت المسلمون معي منذ اقتحمت الأربعين إلى أن بلغت الثمانين، ولقد بعثت إلى الوليد بتور^(٢) زبرجد كان يجعل فيه اللبن حتى ترى فيه الشعرة البيضاء ثم أخذ يُعدّد ما أصاب من الجوهر والزبرجد حتى تحير سليمان، وقد وصف الذهبي موسى بن نصر بقوله: الأمير الكبير، أبو عبد الرحمن اللخمي، متولي إقليم

(١) ابن قتيبة الدينوري، المعارف، ص ١٧٨، السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في

الأندلس، ص ١٠٧.

(٢) التور: الإناء.

المغرب، وفتح الأندلس، قيل: كان مولى امرأة من لحم، وقيل: ولاؤه لبني أمية. وكان أعرج مهيباً ذا رأي وحزم، وكان من أصحاب الهمم الكبيرة فقد قال مرة: والله لو انقاد الناس لي، لقدتهم حتى أوقعهم على رومية ثم ليفتحها الله على يدي، وكان موسى بن نصير بوسعه أن يستقل على الخلافة ويقيم ملكاً له ولأولاده في المغرب والأندلس، ولكن إيمانه العميق بتعاليم الإسلام وتمسكه والتزامه بها جعله لا يفكر بذلك حتى إن يزيد بن المهلب ابن أبي صفرة سأله عن ذلك فقال موسى: والله لو أردت ذلك ما نالوا من أطرافي طرفاً، ولكني آثرت الله ورسوله، ولم نر الخروج عن الطاعة والجماعة^(١).

وقد توفي موسى بن نصير رحمه الله تعالى وهو متجه للحج برفقة الخليفة سليمان بن عبد الملك في المدينة المنورة - على سكانها أفضل الصلاة والسلام - أو في وادي القرى (العُلا، حالياً) أواخر سنة ٩٧هـ وعمره ثمان وسبعون سنة أو يزيد (في سنة ٩٧هـ)، وقال صاحب معالم الإيمان: توفي بالمدينة متوجهاً إلى الحج وكان قد سأل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة أو يموت بالمدينة فأجاب الله دعاءه، وصلى عليه مسلمة بن عبد الملك^(٢).

لقد كانت الدنيا وما فيها صغيرة ولا قيمة لها عند موسى بن نصير ويرجع الفضل في ذلك إلى الله ثم نصيحة العالم الجليل أبو عبد الله على ابن رباح اللخمي لموسى بن نصير، فقد أورد صاحب كتاب (رياض النفوس) أن موسى بن نصير لما وصل من الأندلس إلى القيروان قعد يوماً في مجلسه، فجاءه العرب يسلمون عليه، فلما احتفل المجلس قال: إنه قد صحبتني ثلاث نعم: أما واحدة فإن أمير المؤمنين كتب إلي يهنئني في كتابه وأمر بقراءة الكتاب، فهنيئ بذلك، وأما الثانية فإن كتاب ابني قدم على بأنه فتح له بالأندلس فتح عظيم،

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، (٤/٩٩٤).

(٢) المقرئ، نفح الطيب، (٤/١١)، ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ص ١٨٤.

وأمر بالكتاب فقرأ فهنئ بذلك، وكان على بن رباح ساكت فقال له موسى: مالك يا على لا تتكلم؟ فقال: أصلح الله الأمير، قد قال القوم فقال: وقل أنت أيضاً. فقال: أنا أقول - وأنا أنصح القائلين لك - إنه ما من دار امتلأت حبرة إلا امتلأت عبرة، وما انتهى شيء إلا رجع، فارجع قبل أن يرجع بك، فانكسر موسى بن نصير وخشع وفرق جوارى عدة.. وقال صاحب الرياض: ونفعه الله عز وجل بموعظة أبي عبد الله بن رباح، فصغرت عنده الدنيا وما فيها ونبذها وانخلع مما كان فيه من الإمارة، فرضي الله عن التابعي الجليل، والإداري الحازم، والبطل المغوار، والقوي الأمين، القائد الفاتح، موسى بن نصير اللخمي الذي فتح المغرب الأقصى، واستعاد فتح المغرب الأوسط، وأنه دعم الفتح الإسلامي في الشمال الإفريقي وأنه فتح الأندلس وقسماً من جنوب فرنسا وأنه كان من أعظم قادة الفتح الإسلامي، لقد مات موسى بن نصير بعد أن ملأ جهاده - بقيادة المد الإسلامي المبارك - وديان المغرب الإسلامي (الشمال الإفريقي والأندلسي) وجباله وسهوله وهضابه ووجه دعاة الحق لإسماع ساكنيه دعوة الإسلام الخالدة، فكانت سبباً في إخراجهم من الكفر إلى الإيمان، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الظلمات إلى النور، أما ترى معي موسى وهو يجوب الصحاري والوديان والسهول والجبال وقد سلخ من سني عمره خمساً وسبعين سنة ممتطياً جواده يتحرك في أعماقه إيمان بالله العلي القدير قد دفعه للجهاد والدعوة والعلم والتربية وأحكام أمور الدولة رغم ما علا رأسه من الشيب الوقور، منقاد لإصرار العقيدة السمحة، وهمة الإيمان الفتي، التي كانت سبباً في كل خير أصاب المسلمين^(١).

... أما عن البطل الكبير طارق بن زياد، فلا نكاد نعرف عما حدث له بعد وصوله دمشق غير أن رواية تذكر رغبة سليمان في

(١) الصلابي، عمر بن عبد العزيز، (٣ / ١٦٤).

تولية طارق الأندلس، وبعد ذلك قضى آخر أيامه مغموراً، فهل عاد إلى المغرب والأندلس؟ أم بقي في دمشق ولا يستبعد أن يكون عاد إلى الأندلس أو المغرب^(١)، كان طارق من البربر وعامة جنوده كذلك، فيهم شجاعة وإقدام، فقد تربوا في أحضان الإسلام وعلى تعاليم القرآن الكريم وأصبحوا أصحاب رسالة خالدة صنعت منهم الأبطال، وقدموا في سبيل دينهم وعقيدتهم الغالي والنفيس، بل نجزم بأن الجيوش الإسلامية الضاربة التي اصطدمت بالأسبان اعتمدت بعد الله على إخواننا من البربر الذين اندفعوا خلف طارق في سبيل هذا الدين ونشره، إن العقيدة الإسلامية صهرت المنتسبين إليها عرباً وعجماً في رحاب الإسلام العظيم.

ولكن إهمال المؤرخين لطارق بن زياد لم يحرمه نصيبه من الخلود، فقد شاءت المقادير أن تحمل اسمه أول بقعة في الأندلس وطنتها قدماه وهي جبل طارق، كما سمي بحر الزقاق باسم مضيق جبل طارق، وانتقلت هذه التسمية إلى اللغات الأوروبية جميعها بصيغها محرقة تحريفاً بسيطاً.

ولم تشر الروايات العربية إلى مصير يوليان الذي مهد لفتح الأندلس، وتذكر بعض الروايات أنه عاد إلى سبته وأقطع ما حولها من الأرض، وظل أميراً على سبته نظير خدماته، ولكنه بقي نصرانياً هو وبنوه الأقربون، أما ذريته فيقال: إنها دخلت الإسلام بعد ذلك، أما أبناء غيطشة فقد أقطعوا ما كان لأبيهم، وعامل العرب ابني غيطشة (إيفا وسيزبوت) معاملة حسنة فعينوا أوباس ابنه مطراناً على طليطلة والأندلس، وتوفي إيفا عن ابنة تدعى سارة وطفلين صغيرين فاغتصب عمهما سيزبوت ميراثهم، فرحلت سارة إلى دمشق مع أخويها، وشكت أمرها إلى الخليفة هشام بن عبد الملك،

(١) المقرئ، نوح الطيب، ١٣/٣ - ١٤، فاتح الأندلس طارق بن زياد ص ٤٥، ٤٦. الصلابي، عمر بن عبد العزيز، ٣ / ١٦٥.

فأنصفهما وأمر والي الأندلس أبا الخطار برد ميراثهما إليهما، وفي دمشق تزوجت من عيسى ابن مزاحم، وعادت إلى الأندلس مع زوجها، ورزقت بولدين إبراهيم وإسحاق اللذين أحرزا مكانة عالية. وإلي سارة ينسب مؤرخ الأندلس الشهير ابن القوطية^(١).

* * *

(١) ابن الأثير، الكامل، ٤ / ٢١٣، المقري، نفح الطيب، ١ / ٢٤٥.

عبد الرحمن الغافقي

من مشاهير أعلام المسلمين

عبد الرحمن الغافقي

عبد الرحمن بن عبد الله بن بشر بن الصارم الغافقي، أبو سعيد: أمير الأندلس، من كبار القادة الغزاة الشجعان. أصله من غافق (من قبيلة عك، في اليمن) رحل إلى إفريقية. ثم وفد على سليمان بن عبد الملك الأموي، في دمشق. وعاد إلى المغرب، فاتصل بموسى بن نصير وولده عبد العزيز، أيام إقامتهما في الأندلس. وولي قيادة الشاطئ الشرقي من الأندلس. وكثرت جموعه بعد مقتل السمح بن مالك سنة ١٠٢ هـ فانتقل إلى أربونة، فانتخبه المسلمون فيها أميراً، وأقره والي إفريقية، ولكن لم تدم ولاية عبد الرحمن الغافقي طويلاً، حيث بقي أقل من شهرين، ولم يستطع خلال هذه الفترة القصيرة أن يقوم بأي عمل يذكر، حيث أقام يزيد بن أبي مسلم والي إفريقية عنبسة بن سحيم الكلبي^(١).

يعتبر عبد الرحمن الغافقي من أعظم قواد المسلمين في الأندلس، وعرف بحسن القيادة والشجاعة وقوة الشكيمة، وكان قد أبلى بلاءً حسناً في معارك المسلمين منذ فتح الأندلس لا سيما معركة طولوشة التي قتل فيها السمح، فتركت هزيمة المسلمين أثراً عميقاً في نفسه، ولذلك كان تواقاً لمواجهة الفرنجة، راغباً في الجهاد والانتقام منهم، وجاء تقليده ولاية الأندلس في وقت انبعثت فيه الفتنة بين العرب في هذه البلاد بسبب العصبية القبلية، وكان عبد الرحمن إلى جانب

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٢٦، خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس (الفتح وعصر الإمارة)، ص ٢١٤ - ٢١٥.

صفاته السابقة معروفا بنزاهته وحياده لا يتحيز لفريق على آخر، ولا يتعصب لعنصر على آخر، ولذلك قوبلت ولايته بفرحة عمت قلوب أهل الأندلس، واستبشر الناس لولايته، وشرع عهده برفع المظالم عن الناس، وكان يطوف المدن يتحقق من شكايات الرعية، لا يميز بين مسلم ومسيحي، وعزل كثيرا من القواد والولاة الذين ثبتت مظالمهم للرعية^(١).

عين عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي واليا على الأندلس مرتين، الأولى في عام ١٠٢ هـ - ٧٢١ م، لمدة عام، والثانية من قبل والي أفريقيا مؤيدا من الخليفة هشام بن عبد الملك في صفر عام ١١٢ هـ وفي أوائل عام ١١٤ هـ - ٧٣٢ هـ.

ولما تولى عبد الرحمن الأندلس الولاية الثانية رأى ضبط البلاد أولا ثم السير بعد ذلك للغزو، وقضى عبد الرحمن الغافقي ما يقرب من عام نظم خلالها شؤون البلاد، ثم أعلن الجهاد ضد الفرنجة، فتجمعت حوله جموع المتطوعين الذين كانوا يتوقون للقتال تحت قيادته، وتكون من هذه الحشود جيش هائل يتراوح عدده ما بين سبعين ألفا ومائة ألف، جلهم من البربر، إذ إن العرب في ذلك الوقت كانوا مشغولين بمنازعاتهم القبلية^(٢).

ولعل أهم المعارك التي خاضها عبد الرحمن الغافقي في تاريخه الجهادي هي معركة بلاط الشهداء^(٣) - التي استمرت حوالي عشرة أيام - في رمضان سنة ١١٤ هـ / نوفمبر ٧٣٢م واستشهد الغافقي

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ١٤٠ - ١٤١.

(٢) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ١٤١.

(٣) بلاط الشهداء.

هو السهل الواقع بين مدينتي (تور) و(بواتية) في الشمال الغربي من فرنسا قرب نهر (الوار) وفيه وقعت المعركة الشهيرة بين المسلمين بقيادة عبد الرحمن الغافقي وبين الفرنجة بقيادة (شارل مارتل) سنة ١١٤ هـ (٧٣٢م) والبلاط لغة هو الطريق المبلط وبلاط الشهداء نسبة إلى طريق روماني قديم دارت عنده المعركة.

نفسه في موضع يقع بين مدينتي تور^(١) وبواتيه^(٢) حوالي ٣٢٣ كم جنوبي باريس، وانتهت المعركة بانكسار الجيش الإسلامي وانسحابه من ميدانها.

فبعد أن أتم عبد الرحمن الغافقي استعداداته عام ١١٤ هـ / ٧٣٢م أمر بالمسير نحو بلاد الفرنجة، مخترقا ممر رونسفال ومتجها إلى مدينة بوردو^(٣)، وفي أثناء ذلك حاول دوق أكيانيا أودو اعتراض زحفهم والتصدي لهم، فالتقي الجمعان على نهر الدردون غير بعيد من التقاء هذا النهر بنهر الجارمون، وهزم الدوق ومن معه شر هزيمة وقتل من جيشه أعداد كبيرة وطارد الجيش الإسلامي جيش أودو حتى عاصمته بوردو واستولوا عليها بعد حصار قصير، وفر الدوق مع عدد من أصحابه نحو الشمال وسقطت مقاطعة أكيانيا كلها بيد الجيوش الإسلامية. ثم تابعت هذه الجيوش زحفها نحو الشمال مجتاحة كل ما قابلها، حتى امتلأت أيدي المسلمين بالثروات والغنائم من كل الحصون والأماكن التي افتتحوها، واستمروا في زحفهم حتى وصلوا مدينة بواتيه ففتحوها، واتجهوا إلى مدينة أخرى قريبة منها هي مدينة تور، التي كانت تعتبر من أهم مدن بلاد الفرنجة، وتتمتع

(١) تور tours.

مدينة تقع جنوبي غربي باريس على نهر اللوار غزاها المسلمون في القرن الثامن الميلادي.

(٢) بواتيه. poitiers

مدينة تقع جنوبي غربي باريس وقعت فيها الواقعة المشهورة، وفيها أوقف شارل مارنل الزحف العربي سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م.

(٣) بوردو. bordeaux.

مدينة فرنسية يطلق عليها في المصادر العربية (برديل) أو (بردال) هي قاعدة قليم (جيروند) في فرانساتقع عند مصب نهر (الجارون lajaranne) الذي يصب في المحيط الأطلسي. احتلها العرب في الحملة التي قادها عبدالرحمن الغافقي غازيا فرانساً سنة ١١٤ هـ (٧٣٢م) والتي انتهت بمصرعه في (بلاط الشهداء) وإنسحاب الجيش العربي إلى إسبانيا.

بمكانة دينية خاصة، لكونها كانت تضم رفات القديس مارتين. أما الدوق أودو الذي فر بعد هزيمته فقد إستتجد بعد ذلك بخصمه شارل مارتل محافظ القصر في بلاط الأسرة الميروفنجية الحاكمة في بلاد الفرنجة، موضحا له مدي الخطر الذي تتعرض له البلاد بأسرها إذا هو لم يقبل أن يهب لنجدته، وإلي إيقاف الجيوش الإسلامية عند حدها (١).

أخذ شارل مارتل يحشد كل ما إستطاع من الإمكانيات البشرية والمادية لمقابلة الجيوش الإسلامية، ولم يكتف بحشد كل المقاتلة الذين يستطيع حشدهم من قبائل الفرنجة، بل لجأ أيضا إلى حشد القبائل الجرمانية النصف متوحشة، التي كانت تسكن فيما وراء الراين، وكل جموع المرتزقة الذين استطاع أن يأتي بها لمساعدته في المعركة، ثم انحدر بعد ذلك من الشمال نحو مدينة تور وقد اصطدمت القوات المسيحية بالجيوش الإسلامية في أول لقاء على ضفاف نهر اللوار، ولكن هذا الاصطدام لم يسفر عن أي نتيجة تذكر، إذ إن عبد الرحمن الغافقي فضل على إثر ذلك أن يتفهم نحو الجنوب إلى السهل الممتد بين تور وبواتييه لينظم صفوفه ويعد عدته للقاء العدو (٢).

وفي ذلك الوقت كان الجيش الإسلامي قد استولي عليه التعب من جراء المسافة الطويلة التي قطعها منذ الخروج من قرطبة، ونقص عدده بسبب ترك بعض الحاميات في المدن المفتوحة، وقد امتلأت أيدي الجند بالغنائم والثروات التي غنموها وحملوها معهم، والتي لا

(١) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمون في الأندلس، ص ١٤٢، خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس، ص ٢٣٢ - ٢٣٣، على حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ٧٢.

(٢) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمون في الأندلس، ص ١٤٢، خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس، ص ٢٣٢ - ٢٣٣، على حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ٧٢.

يقبلون التخلي عنها مطلقا. وكان هذا العامل الأخير له الأثر السيء على الجيش الإسلامي وكان أحد أسباب الهزيمة في هذه المعركة. بدأت المعركة في سهل تور أو بواتييه في رمضان سنة ١١٤ هـ / نوفمبر ٧٣٢ م، بمناوشات إستمرت ثمانية أيام رجحت فيها كفة المسلمين، وفي اليوم التاسع خاض الجمعان معركة عنيفة استمرت إلى أن أرخي الليل سدوله، واستراح الجمعان، ثم استؤنف القتال في اليوم العاشر بشراسة وقسوة وشدد المسلمون حملتهم على جيش الفرنجة حتى كادوا يقطعوا ثمار النصر، غير أن أودو عرف نقطة الضعف في جيش المسلمين لعلاقته السابقة بهم، فقد كان يعرف أن من عادة المسلمين أن يتركوا غنائمهم في مؤخرة الجيش، فالتف مع فرقة من جيشه خلف جيش المسلمين وهاجم مؤخرته، وبلغ هذا الهجوم أفراد الجيش الإسلامي فراجع الكثير منهم إلى المعسكر لاستخلاص الغنائم من يدي الفرنجة، فأخذ هذا التراجع بنظام الجيش، وحاول عبد الرحمن الغافقي عبثا أن يعيد إلى الجيش تنظيمه، غير أن سهما أصابه من الأعداء فسقط شهيدا في أرض المعركة، ولما رأى المسلمون قائدهم صريعا اضطربت نفوسهم، وارتبكت صفوفهم، وأحاط بهم الفرنجة من كل مكان، وراحوا يعملون فيهم بالسيف، وقد صمد المسلمون على مدافعة الفرنجة حتى أقبل الليل وأرخي سدوله، فحال بين الجيشين وعاد كل جيش إلى موقعه، واجتمع كبار رجال الجيش وتشاوروا فيما بينهم ماذا يفعلون، ثم أجمعوا على الرجوع إلى ديار الإسلام متجهين إلى سبتمانيا، أربونة، في ظل الليل مخلفين خيامهم وغنائمهم، وقد باتت الفرنجة ليلتهم وهم ينوون القضاء على المسلمين في صباح اليوم التالي، فلما أدركهم الصباح نظروا إلى معسكر المسلمين فوجدوه خاليا من أصحابه، ولم يحاول الفرنجة تتبع فلول المسلمين، لأنهم خافوا أن يكون من وراء تراجعهم كمين نصبوه لجيشهم، أو لأنهم لقوا صعوبة في قتال المسلمين، فأثر قائدهم شارل مارتل العودة بجيشه نحو

الشمال معتزاً بما أحرزه من انتصار على المسلمين، وقد سمي المسلمون هذه الموقعة بلاط الشهداء لكثرة من استشهد فيها من عظماء الرجال مع عبد الرحمن الغافقي^(١).

في الحقيقة أنه على الرغم من ضخامة حملة عبد الرحمن الغافقي تلك إلا إنه كانت هناك مشكلة كبيرة تكاد تفتك بها، وهي أن هذه الحملة كانت قد فتحت مدناً كثيرة حتى وصلت إلى بواتيه، ومن ثم فقد جمعت من الغنائم الكثير الذي زاد وثقل في أيدي المجاهدين، وهنا بدأ المجاهدون ينظرون إلى هذه الغنائم ويفتنون بهذه الأموال الضخمة التي حصلوها.

ونتيجة هذا فقد اشتهر بين الناس فكرة العودة إلى بلاد الأندلس لحفظ هذه الغنائم هناك حتى لا يحصل عليها الفرنسيون، لكن عبد الرحمن الغافقي رحمه الله جمع الناس وقال مخاطباً إياهم: ما جئنا من أجل هذه الغنائم، وما جئنا إلا لتعليم هؤلاء الناس هذا الدين، ولتعبيد العباد لرب العباد سبحانه وتعالى، وأخذ يحفزهم على الجهاد والموت في سبيل الله، ثم انطلق بالجيش إلى بواتيه رغماً عن أنف الجنود.

عندما وصل عبد الرحمن الغافقي بالجيش إلى بواتيه ظهرت ثمة أمور أخرى جديدة؛ فقد تجددت العصبية التي كانت قد اندحرت في بلاد الأندلس بين العرب والبربر من جديد؛ وذلك بسبب كثرة الغنائم، فقد اختلفوا في توزيعها رغم أنه معروف ومتفق عليه، أخذ كل ينظر إلى ما بيد الآخر، وكل يريد الأكثر، يقول العرب: إنهم أحق لأفضليتهم، ويقول البربر نحن الذين فتحنا البلاد، ونسي الجميع أن

(١) حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص ٢٧٥، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمون في = الأندلس، ص ١٤٣ - ١٤٤، خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس، ص ٢٣٥ - ٢٣٦، محمد زيتون، المسلمون في المغرب والأندلس، ص ٢١٠، على حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ٧٣ - ٧٤.

الفاحين الأوائل ما فرقوا أبداً بين عرب وبربر، بل وبينهم وبين من دخل الإسلام من الأندلسيين بعد ذلك، وإضافة إلى العصبية وحب الغنائم والحرص عليها، فقد اجتمع إلى جوارهما الزهو والاغترار بالكثرة والعدد الضخم، فخمسون ألفاً من المجاهدين عدد لم يسبق في تاريخ الأندلس، فأخذتهم العزة، وظنوا أنهم لن يغلبوا بسبب كثرتهم هذه، ومن بعيد تلوح في الأفق حُنيئاً جديدة [وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كَثْرَتِكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ] {التوبة: ٢٥} فالمسلمون لم ينتصروا أبداً بعدتهم ولا عتادهم، وإنما كانوا ينتصرون بطاعتهم لله ومعصية عدوهم له سبحانه وتعالى، وللأسف الشديد فرغم وجود هذا القائد الرباني التقى الورع إلا أن عوامل الهزيمة داخل الجيش الإسلامي كانت كثيرة وأقوى منه.

ولم تذكر الروايات الإسلامية حصراً دقيقاً لشهداء المسلمين في بلاط الشهداء، إلا أن بعض الروايات الأوروبية بالغت كثيراً في أعداد قتلى المسلمين فيها، فتذكر بعضها أن قتلى المسلمين في بلاط الشهداء بلغ خمسة وسبعين وثلاثمائة ألف مسلم، وهو بلا شك رقم مبالغ فيه جداً؛ لأن جيش المسلمين في الأساس لم يتعد حاجز الخمسين ألفاً.

وفي رواياتهم يقول: الأوروبيون متخوفون أنه لو كان انتصر المسلمون في بلاط الشهداء على الفرنسيين لفتحت أوروبا جميعاً، ولدرّس القرآن في جامعات أكسفورد وغيرها من الجامعات الأوروبية، ووالله إنها لتعاسة لهم وخسران إن لم ينتصر المسلمون، فلو انتصروا لكان قد انتشر الخير في هذه البلاد، لكنهم ظلوا في ضلالتهم وظلوا في غيهم يعمهون ويعبدون غير الله سبحانه وتعالى ويشركون به.

بعد هذه المعركة انسحب المسلمون إلى الداخل، ومع أنهم هُزموا

وانسحبوا إلا أنها لم تكن هزيمة ساحقة كما صورها الأوروبيون،
بدليل أن جيش النصارى لم يتبع جيش المسلمين حيث انسحبوا،
وكان من عادة الجيوش أنها تتتبع الجيش الفار، بل اكتفى النصارى
بما أخذوه من غنائم، وما قتلوه من قتلى من المسلمين.

وقفه مع بلاط الشهداء:

يقول الله تعالى في كتابه الكريم: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ
أَحْيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ } [فاطر: ٥]. فالملاحظ أن المسلمين
قد اغتروا بهذه الدنيا التي فتحت عليهم فتنافسوها، وقد جاء عن
رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن عمرو بن
عوف الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «فَوَاللَّهِ مَا أَلْفَقَرُ
أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى
مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكُكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ» (١).

فسنة لله تعالى في خلقه: أنه إن فتحت الدنيا على المسلمين
وتنافسوها كما تنافسها من كان قبلهم من الأمم السابقة، فإنها ستهلكهم
أيضا كما أهلكت هذه الأمم السابقة، فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله
تحويلاً [فاطر: ٤٣].

أمر آخر كان في جيش المسلمين وكان من عوامل الهزيمة وهو
العنصرية والعصبية القبلية التي كانت بين العرب والبربر في هذه
الموقعة، ولقد شاهد الفرنسيون أثر هذا الذي نشأ بين العرب وبين
البربر، ووعت الكتب الفرنسية هذا الأمر جيدا، وظل في ذاكرتها
على مدار التاريخ حتى مرت الأيام ومرت السنوات، ودخلت فرنسا
بلاد الجزائر، واحتلتها من سنة ألف وثمانمائة وثلاثين، وحتى سنة
ألف وتسعمائة وستين ميلادية، فحين قامت الحركات الاستقلالية منذ
سنة ألف وتسعمائة وعشرين وما بعدها، وحين فكرت فرنسا في
القضاء على هذه الحركات الاستقلالية الناشئة لم تجد أمامها إلا

(١) قال الشيخ الألباني: (صحيح) انظر: حديث رقم: ١٠٣٦ في صحيح الجامع.

إشاعة الفتنة بين العرب والبربر وضربهم ببعضهم البعض، فكانت تشيع داخل البربر أنهم قرييون من العنصر الآري (وهو العنصر الأوروبي)، وبعيدون عن العنصر السامي (وهو العرب)، أي أنتم منا ونحن منكم والعرب بيننا غرباء؛ وذلك للتشابه الكبير بين البربر والأوروبيين في الشكل الخارجي الأمر الذي لا يعترف به الإسلام ولا يقره على الإطلاق، فالمعيار الوحيد في التفاضل في الإسلام هو التقوى.

ولم تكثف فرنسا بذلك، بل قامت بتكثيف تعليم اللغة الفرنسية في مناطق البربر، ومنعت تعليم اللغة العربية في هذه المناطق أصلاً؛ وذلك حتى يتم فصل البربر عن العرب تماماً في منطقة الجزائر، وهي وإن كانت قد نجحت في أمر اللغة بعض الشيء إلا إنها لم تفلح على الإطلاق في تحويل ديانة البربر الإسلامية إلى النصرانية، فظل البربر على إسلامهم وإن كانت لغتهم قد تغيرت، في بادئ الأمر كان البربر الذين يعيشون في منطقة الجزائر تسمى قبائل الأمازيغ، وكانوا يمثلون خمسة عشر بالمائة من شعب الجزائر، ورغم أن لهم لغة خاصة بهم وهي الأمازيغية إلا أنهم كانوا يتمسكون بالعربية، لكن حين قامت فرنسا بهذا الأمر بدأت تُذكي الروح البربرية في اللغة المنفردة لهذه القبائل؛ فبدأت تعلم اللغة الأمازيغية، حتى إنها أنشأت في فرنسا عام سبعة وستين وتسعمائة وألف أكاديمية خاصة لتعليم اللغة الأمازيغية، وبدأت تكتب اللغة الأمازيغية بحروف لاتينية رغم أنها كانت لغة منطوقة وليست مكتوبة، قامت فرنسا كذلك بحذف الكلمات العربية التي كانت قد دخلت هذه اللغة وأبدلتها بأخرى أصيلة في اللغة البربرية، وبدأت بالفعل في اجتذاب الشباب من البربر لتعليمهم اللغة الأمازيغية في فرنسا، حتى إنه في عام ثمانية وتسعين وتسعمائة وألف أنشأت ما يسمى بالأكاديمية العالمية للبربر، فبدأت تجمع البربر من مناطق المغرب العربي وغرب إفريقيا وتعلمهم اللغة الخاصة بهم، وكل ذلك لفصل العرب عن البربر، تلك الجموع التي ما هي إلا جموع إسلامية

ارتبطت برباط العقيدة والدين، لكنها رأت آثار ذلك في وادي برباط وما تلاها فلم تتوان، وفي ذات الوقت الذي تعمل فيه فرنسا جاهدة على إقامة لغة غير العربية في بلد عربي، كانت هي فرنسا التي رفضت المشروع الذي تقدم به جوسبان رئيس وزرائها إلى شيراك سنة تسع وتسعين وتسعمائة وألف بإقرار بعض اللغات المحلية داخل فرنسا، والذي رد عليه شيراك بقوله: إنك بهذا تريد بلقنة فرنسا، أي جعلها كدول البلقان، بلاد متفرقة بحسب العرق وبحسب العنصر، حلال على الجزائر حرام على فرنسا.

* * *

عبد الرحمن الداخل

من مشاهير أعلام المسلمين

عبد الرحمن الداخل [صقر قريش]

بعد سقوط الدولة الأموية، وانتصار العباسيين على الأمويين في موقعة الزاب في ١١ من جمادي الآخرة سنة ١٣٢هـ / ٧٤٩م، أخذ العباسيون يتعقبون أمراء بني أمية حيثما وجدوا وحلوا، وأعملوا السيف قتلا وتنكيلا لكل من كان مؤهلا من الأمويين لتولي الخلافة، فقتلوا الأمراء وأبناء الأمراء وأبناء الأمراء (الأحفاد) إلا قلة ممن لم تصل إليه سيوفهم، فقد أمر الخليفة العباسي الأول أبو العباس السفاح (١٣٢ - ١٣٦هـ / ٧٤٩ - ٧٥٣م) بتتبع بني أمية وقتلهم والقضاء عليهم، ولذلك تفرقوا في أطراف البلاد للنجاة بأرواحهم من بطش بني العباس لهم.

ولكن هذه المطاردة الدموية لم تجتث الشجرة من أصلها، وشاء القدر أن تفلت بعض فروعها من أيدي الجناة، وأن تزكو لتستعيد أصلها الراسخ في أرض أخرى، وكان ممن نجا من المذبحة الهائلة فتى من ولد هشام بن عبد الملك هو عبد الرحمن بن معاوية حفيد هشام بن عبد الملك كان من القلة التي لم تصلهم سيوف العباسيين، وكان عمره وقت حدوث النكبة تسع عشرة سنة فقط، وكان يقيم مع أهله وإخوته في قرية تعرف بدير خان من أعمال قنسرين، وفيها مولده في سنة ١١٣هـ / ٧٣١م، وقيل بل مولده بالعليا من أعمال تدمير، وتوفي أبوه معاوية شابًا فتنيًا أيام أبيه هشام بن عبد الملك في سنة ١١٨هـ فكفله وإخوته جدهم هشام^(١)، ولما انهار صرح الخلافة

(١) المقري، نفح الطيب، ١ / ١٥٦.

الأموية، وأمعن الظافر في مطاردة بني أمية، فر عبد الرحمن وأخ صغير له لم يتجاوز عمره الثالثة عشرة، وكلاهما مطلوبي الرأس من قِبَل العباسيين.

في العراق كان عبد الرحمن بن معاوية يجلس في بيته إذ دخل عليه ابنه ابن الأربيع سنين يبكي فزعاً، وكان عبد الرحمن بن معاوية مريضاً معتزلاً في الظلام في ركن من البيت من أثر رمد في عينه، فأخذ يسكن الطفل بما يسكن به الأطفال إلا أن الطفل ظل فزعاً مرعوباً لم يسكن، فقام معه عبد الرحمن بن معاوية فوجد الرايات السود (رايات الدولة العباسية) خارج البيت، وكانت تعم القرية جميعها، فعلم أنه مطلوب، رجع عبد الرحمن بن معاوية وأخذ أخاه الوليد بن معاوية وما معه من نقود، وترك النساء والأطفال وكل شيء؛ لأن العباسيين لم يكونوا ليقتلوا النساء ولا الأطفال، ولكن كانوا يقتلون كل من بلغ وكان مؤهلاً للخلافة.

يقول المقري: "... إنه لما وقع الاختلال في دولة بني أمية والطلب عليهم، فرّ عبد الرحمن، ولم يزل في فراره منتقلاً بأهله وولده إلى أن حلّ بقرية على الفرات ذات شجر وغياض، يريد المغرب، لما حصل في خاطره من بشرى مسلمة^(١)، فمما حكي عنه أنه قال: إني لجالس يوماً في تلك القرية في ظلمة بيت تواريت فيه لرمدٍ كان بي، وابني سليمان بكر ولدي يلعب قدامي، وهو يومئذ ابن

(١) نسب إلى مسلمة بن عبد الملك أنه كان يخبر بأمر من الحدثن والملاحم، وكان يرى أن نهاية بني أمية في المشرق قد اقتربت ويتنبأ بظهور عبد الرحمن بن معاوية وأنه محيي دولة بني أمية في الأندلس بعد زوالها في المشرق يقول ابن عذارى: "... حدث عبد الرحمن قال: دخلت الأندلس وأنا أضبط جلية مسلمة بن عبد الملك، فإنه أتى جدي هشاماً يوماً، فوجدني صبياً عنده، فأمر جدي بتنحيته عنه، فقال له مسلمة: دعه يا أمير المؤمنين، فإنه صاحب بني أمية، ومحيي دولتهم بعد زوالها، فلم أزل أعرف لي مزية من جدي بعد. البيان المغرب، ٢ / ٦١، وراجع أيضاً: أخبار مجموعة: ص ٥١ - ٥٢ وسيأتي شيء من ذلك في هذا الكتاب.

أربع سنين أو نحوها، إذ دخل الصبي من باب البيت فازعاً باكياً فأهوى إلى حجري، فجعلت أدفعه إلى ما كان بي ويأبى إلا التعلق، وهو دهش يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع، فخرجت لأنظر، فإذا بالروع قد نزل بالقرية، ونظرت فإذا بالرايات السود عليها منحطة، وأخ لي حديث السن كان معي يشدد هارباً ويقول لي: النجاء يا أخي، فهذه رايات المسودة^(١)، فضربت بيدي على دنائير تناولتها، ونجوت بنفسي والصبي أخي معي، وأعلمت أخواتي بمتوجهي ومكان مقصدي، وأمرت أن يلحقني ومولاي بدر معهن... ”^(٢).

ثم فر عبد الرحمن هارباً إلى ناحية الفرات، وحل هناك ببعض القرى واختفي بها حيناً يدبر أمره، ولكن دل عليه رجل، مما جعل جنود الدولة العباسية تستقصي خبره وتحاول القبض عليه، فبادر عبد الرحمن بالفرار هو وأخوه باتجاه نهر الفرات، وعند الفرات وجد عبد الرحمن بن معاوية وأخوه القوات العباسية تحاصر النهر، فألقيا بأنفسهما فيه وأخذا يسبحان، ومن بعيد ناداهما العباسيون أن ارجعا ولكما الأمان، حينها كان الوليد بن معاوية أخو عبد الرحمن بن معاوية قد أجهد من السباحة، فأراد أن يعود، فناداه أخوه الأكبر ألا تعد يا أخي وإلا فسيقتلوك، فرد عليه إنهم قد أعطونا الأمان، ثم عاد راجعاً إليهم، فما أن أمسك به العباسيون إلا أن قتلوه أمام أعين أخيه، عبّر عبد الرحمن بن معاوية النهر وهو لا يستطيع أن يتكلم أو يفكر من شدة الحزن على أخيه ابن الثالثة عشرة.

يقول المقرئ - على لسان عبد الرحمن بن معاوية - : ”...، وخرجت فكمنت في موضع ناء عن القرية، فما كان إلا ساعة حتى أقبلت الخيل فأحاطت بالدار، فلم تجد أثراً ومضيت ولحقتي بدر، فأتيت رجلاً من معارفي بشط الفرات، فأمرته أن يبتاع لي دواب وما

(١) الرايات السود شعار الدولة العباسية الجديدة.

(٢) المقرئ، نفح الطيب، ١/ ١٥٦.

يصلح لسفري، فدلّ على عبد سوء له العامل، فما راعنا إلا جلبة الخيل تحفزنا فاشتدنا في الهرب، فسبقناها إلى الفرات، فرمينا فيه بأنفسنا، والخيل تنادينا من الشط: ارجعا لا بأس عليكم، فسبحت حائماً لنفسي وكنت أحسن السبح، وسبح الغلام أخي، فلما قطعنا نصف الفرات قصر أخي ودهش، فالتفت إليه لأقوي من قلبه، وإذا هو قد أصغى إليهم وهم يخدعونه عن نفسه، فناديته: تقتل يا أخي، إلىّ إلىّ، فلم يسمعني، وإذا هو قد اغتر بأمانهم، وخشي الغرق، فاستعجل الانقلاب نحوهم، وقطعت أنا الفرات، وبعضهم قد هم بالتجرد للسباحة في أثري، فاستكفه أصحابه عن ذلك، فتركوني، ثم قدموا الصبي أخي الذي صار إليهم بالأمان فضربوا عنقه، ومضوا برأسه وأنا أنظر إليه وهو ابن ثلاث عشرة سنة، فاحتملت فيه ثكلاً ملأني مخافةً، ومضيت إلى وجهي أحسب أني طائر وأنا ساع على قدمي، فلبأت إلى غيضة أشبه، فتورايت فيها حتى انقطع الطلب... ” (١)

واخترق عبد الرحمن فلسطين ومصر، ولحق به مولياه بدر وسالم، أنفذتهما إليه أخته أم الأضبع بشيء من المال والجوهر، ثم جاز إلى برقة والتجأ إلى أخواله بني نفزة، وهم من برابرة طرابلس، وكانت أمه بربرية منهم تدعي راح، وأقام لديهم طويلاً يرقب الأحداث، وقد كانت إفريقية في ذلك الوقت مطمح الخوارج والمغامرين، وكان عبد الرحمن بن حبيب الفهري قد انتزعها لنفسه سنة ١٢٧هـ، ولما دالت دولة بني أمية دعا لبني العباس ودخل في طاعتهم، وكان عبد الرحمن بن حبيب يخشي على سلطانه من ظهور بني أمية في إفريقية فطارد اللاجئين منهم إليها، وقتل ولدينه للوليد بن يزيد بن عبد الملك كانا قد استجارا به، واعتقل آخرين وصادر أموالهم، خوفاً من نبوءة يهودي قد تنبأ بظهور دولة أموية في الأندلس، وكان في بلاط عبد الرحمن بن حبيب يهودي عالم بالحدثان،

(١) المقرئ، نفح الطيب، ١/١٥٦.

قد صحب مسلمة بن عبد الملك، قد ذكر لابن حبيب أنه يغلب على الأندلس رجل من أبناء الملوك يقال له: عبد الرحمن له صغيرتان، ولما ظهر عبد الرحمن حاول القبض عليه وقتله حتى لا تتحقق النبوءة^(١)، لا سيما وأن عبد الرحمن بن معاوية من أمراء بني أمية أصحاب الحسب والنسب وسادة العرب وأشرفهم، الذين أخذوا يفدون على إلى إفريقية لتطرفها وبعدها عن الخلافة العباسية وهو يخاف على مارة إفريقية والأندلس من أمراء بني أمية، ولكن عبد الرحمن استطاع أن يتجنب المطاردة وفر مع صحبه إلى المغرب الأقصى، وتجول حيناً في تلك الأنحاء، ولقي كثيراً من الصعاب والخطوب، وكان يري الموت والأسر ينذرانه في كل خطوة. وأقام حيناً مختفياً عند شيخ من شيوخ البربر يدعي وانسوس، كانت له فيما بعد لديه حظوة، ثم نزل عند قوم من زناته على شاطيء البحر، ولحق حيناً بملييلة وغيرها، وكان أثناء تجواله يدرس أحوال الأندلس وأخبارها، ويرقب فرص العبور إليها^(٢).

يقول المقري - على لسان عبد الرحمن بن معاوية -: "... ثم خرجت أوم المغرب حتى وصلت إلى إفريقية... وسار حتى أتى إفريقية وقد ألحقت به أخته شقيقته أم الأصبغ مولاه بدرأ، ومولاه سالمأ، ومعهما دنانير للنفقة، وقطعة من جوهر، فنزل بإفريقية وقد سبقه إليها جماعة من فل بني أمية، وكان عند واليها عبد الرحمن بن حبيب الفهري يهودي حدثاني صحب مسلمة ابن عبد الملك، وكان يتكهن له ويخبره بتغلب القرشي المرواني الذي هو من أبناء ملوك القوم، واسمه عبد الرحمن، وهو ذو صغيرتين يملك الأندلس ويورثها

(١) أغلب الظن أن أمثال هذه القصص ملفقة، وأن الغرض الأساسي منها هو تمجيد البطل، ونسب قصص ونبوءات خارقة له لتمجيده وإعلاء شأنه. انظر: ابن عذاري، البيان المغرب، ٦٠ / ٢.

(٢) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ١٥٠ - ١٥١، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمون في الأندلس، ص ١٧٧ - ١٧٨.

عقبه، فاتخذ الفهري عند ذلك ضفيرتين أرسلهما رجاء أن تناله الرواية، فلما جيء بعبد الرحمن ونظر إلى ضفيرتيه قال لليهودي: ويحك، هذا هو، وأنا قاتله، فقال له اليهودي: إنك إن قتلته فما هو به، وإن غلبت عن تركه إنه لهو. وثقل فل بني أمية على بن حبيب صاحب إفريقية، فطرد كثيراً منهم مخافةً، وتجنى على ابنين للوليد بن يزيد كانا قد استجارا به فقتلها، وأخذ مالا كان مع اسماعيل بن أبان بن عبد العزيز بن مروان، وغلبه على أخته فتزوجها بكرهه، وطلب عبد الرحمن فاستخفى،...

وذكر ابن عبد الحكم أن عبد الرحمن الداخل أقام ببرقة مستخفياً خمس سنين، وآل أمره في سفره إلى أن استجار ببني رستم ملوك تيهرت من المغرب الأوسط، وتقلب في قبائل البربر إلى أن استقر على البحر عند قوم من زنانة، وأخذ في تجهيز بدر مولاه إلى العبور للأندلس لموالي بني أمية وشيعتهم بها^(١)

وظل عبد الرحمن بن معاوية يتحين الفرص للعبور إلى الأندلس والسيطرة عليها، حتى وافته الفرصة بالصراع الذي دب بين اليمانية والمضرية، فبعث بدرا مولاه إلى الأندلس لسبر غور شئونها ودراسة أحوالها وكيفية الولوج إليها والسيطرة على مقاليد الأمور بها، وليحاول بث دعوته بين أنصار بني أمية وأهل الشام، فنزل بدر بساحل البيرة (كورة من كور غرناطة) وكانت منزل جند الشام، وفيها تجتمع عصابة بني أمية، وكانت رياسة الأمويين (او المروانية) والشاميين يومئذ لزعيمين من موالي بني أمية هما أبو عثمان عبيد الله بن عثمان وصهره عبد الله بن خالد، فاجتمع بدر بأبي عثمان وأبلغه رسالة عبد الرحمن وناشده العمل لنصرته، وبث دعوته بين أصدقائه وشيعته، ولاسيما بين اليمانية، وهم خصوم يوسف الفهري ومنافسوه، فاستجاب أبو عثمان لهذه الدعوة، وكانت بينه وبين

(١) المقرئ، نفح الطيب، ١/ ١٥٦ - ١٥٧.

الصميل مودة وصداقة، فكر في التماس عونه في ذلك المشروع، وسار إليه مع عبد الله بن خالد في طليطلة، وكان الصميل قد ارتد إليها منهزما عن سرقسطة وفي نفسه مراره من يوسف لأنه قصر عن غوثه وإنجاده، ففاوضاه في أمر عبد الرحمن وطلبا منه العون والتأييد، ولكن الصميل أبدي فتورا وترددا، واقترح أن يتزوج عبد الرحمن من ابنة يوسف، وأن ينزل آمنا في ظله، ثم صرفهما ببعض الوعود الغامضة، وكان الصميل في الواقع يحرص على أن تبقي السلطة ليوسف، لأنه مستأثر في ظله بالنفوذ والسلطان، ويشاركه في تدبير الأمر وحكم الأندلس، فعاد أبو عثمان وزميله إلى البيرة ونشطا في بث دعوتهمتا فيها، وحث اليمينية على القيام للأخذ بالثأر، وبث دعوتهمتا في أنحاء الأندلس، يدعوتن إلى تأييد عبد الرحمن بن معاوية. وعاد بدر إلى عبد الرحمن الأموي على مركب خاصة جهزها له أبو عثمان ومعه عدة من أنصار الأموية، وأفضي إليه بنتائج الرحلة، فاستبشر عبد الرحمن وعبر البحر معهم إلى الأندلس، ونزل بساحل البيرة في ثغر المنكب^(١)، وذلك في ربيع الآخر سنة ١٣٨ هـ / سبتمبر ٧٥٥ م فاستقبله أبو عثمان وأنزله بمقامه في طرش^(٢)، فاستقر بها ينظم دعوته ويدبر خطه. وقد أعد للأمير مايصلحه من المركب والملبس والمنزل فغلظ أمر ابن معاوية وأقبل الناس منكل مكان إليه^(٣).

يقول المقرئ عن تلك الأحداث: "... كانت الموالي المروانية

(١) المنكب ALMEUNECAR.

ميناء على الساحل الجنوبي الشرقي من الأندلس، نزل فيها الأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (عبد الرحمن الداخل) عند دخوله الأندلس، وهي الآن مصيف مدينة غرناطة.

(٢) وهي قرية تقع غربي المنكب على مقربة من البحر.

(٣) ابن عذارى، البيان المغرب، ٢ / ٤٦، المقرئ، نفع الطيب، ٢ / ٦٥، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ١٥٢.

المدونة بالأندلس في ذلك الأوان ما بين الأربعمائة والخمسمائة، ولهم جمرة، وكانت رياستهم إلى شخصين: أبي عثمان عبيد الله بن عثمان، وعبد الله بن خالد، وهما من موالي عثمان، رضي الله تعالى عنه، وكانا يتوليان لواء بني أمية يعتقان حمله ورياسة جند الشام النازلين بكورة البيرة، فعبر بدر مولى عبد الرحمن إلى أبي عثمان بكتاب عبد الرحمن يذكره فيه أيادي سلفه من بني أمية وسببه بهم ويعرفه مكانه من السلطان وسعيه لنيله، إذ كان الأمر لجده هشام فهو حقيق بوارثته، ويسأله القيام بشأنه وملاقة من يثق به من الموالى الأموية وغيرهم، ويتلطف في إدخاله إلى الأندلس ليبيي عذراً في الظهور عليها، ويعدّه بإعلاء الدرجة، ولطف المنزلة، ويأمره أن يستعين في ذلك بمن يأمنه، ويرجو قيامه معه، ويأخذ فيه مع اليمانية ذوي الحنق على المضرية لما بين الحيين من التراث، فمشى أبو عثمان لما دعاه إليه، وبانت له فيه طماعية، وكان عند ورود بدر قد تجهز إلى ثغر سرقسطة لنصرة صاحبها الصميل بن حاتم وجه دولة يوسف بن عبد الرحمن صاحب الأندلس، فقال لصهره عبد الله بن خالد المذكور: لو كنا ذاكرنا الصميل خبر بدر وما جاء به لنختبر ما عنده في موافقتنا، وكانا على ثقة في أنه لا يظهر على سرهما أحداً لمروءته وأنفته، فقال له: إن نحن فعلنا لم نأمن من أن تدركه الغيرة على سلطان يوسف لما هو عليه من شرف القدر وجلالة المنزلة فيتوقع سقوط رياسته فلا يساعدنا، قال أبو عثمان: فتمسح إذاً على أمره، ونذكر له أنه قصد لإرادة الإيواء والأمان وطلب أخماس جده هشام لدينا ليتعيش بها، لا يريد غير ذلك، فاتفقا على هذا. فلما ودعا الصميل خلوا به في ذلك، وقد ظهر لهما منه حقاً على صاحبه يوسف في إبطائه عن إمداده لما حاربه الحباب الزهري بكورة سرقسطة، فقال لهما: أنا معكما فيما تحبان، فاكتبا إليه أن يعبر، فإذا حضر سألنا يوسف أن ينزله في جواره وأن يحسن له، ويزوجه بابنته، فإن فعل وإلا ضربنا صلغته بأسيفنا، وصرفنا الأمر عنه إليه،

فشكراه وقبلأ يده ثم ودعاه، وأقام بطليطلة وقد ولاه يوسف عليها وعزله عن الثغر، وانصرفا إلى وطنهما بالبيرة، وقد كانا لقيما من كان معهما في العسكر من وجوه الناس وثقاتهم، فطارحاهم أمر ابن معاوية، ثم دسّا في الكور إلى ثقاتهما بمثل ذلك، فدب أمره فيهم دبيب النار في الجمر، وكانت سنة خلف بالأندلس بعد خروج من المجاعة التي دامت بالناس... وفي رواية أن الصميل لان لهما في أن يطلب الأمر عبد الرحمن الداخل لنفسه ثم دبر ذلك لما انصرفا، فتراجع فيه، فردهما، وقال: إني رويت في الأمر الذي أدرتة معكما فوجدت الفتى الذي دعوتماني إليه من قوم لو بال أحدهم بهذه الجزيرة غرقنا نحن وأنتم في بوله، وهذا رجلٌ نتحكم عليه، ونميل على جوانبه، ولا يسعنا بدل منه، ووالله لو بلغتما بيوتكما ثم بدا لي فيما فارقتكما عليه لرأيت أن لا أقصر حتى ألقكما لئلاً أغركما من نفسي، فإني أعلمكما أن أول سيف يسلّ عليه سيفي، فبارك الله لكما في رأيكما، فقالا له: ما لنا رأي إلا رأيك، ولا مذهب لنا عنك. ثم انصرفا عنه على أن يعينهما في أمره إن طلب غير السلطان، وانصرفا عنه إلى البيرة عازمين على التصميم في أمره، ويثسا من مضر وربيعة، ورجعا إلى اليمانية، وأخذوا في تهيج أحقاد أهل اليمن على مضر، فوجداهم قوماً قد وغرت صدورهم عليهم، يتمنون شيئاً يجدون به السبيل إلى إدراك ثأرهم، واغتتما بعد يوسف صاحب الأندلس في الثغر، وغيبية الصميل، فابتاعا مركباً ووجها فيه أحد عشر رجلاً منهم مع بدر الرسول، وفيهم تمام بن علقمة وغيره، وكان عبد الرحمن قد وجه خاتمه إلى مواليه، فكتبوا تحت ختمه إلى من يرجونه في طلب الأمر، فبثوا من ذلك في الجهات مادبّ به أمرهم، ولما وجه أبو عثمان المركب المذكور مع شيعته ألفوه بشطّ مغيلة من بلاد البربر، وهو يصلي، وكان قد اشتد قلقه وانتظاره لبدر رسوله، فبشره بدر بتمكن الأمر، وخرج إليه تمام مكثراً لتبشيره، فقال له عبد الرحمن: ما اسمك؟ قال: تمام، قال: وما كنيته؟ قال: أبو

غالب، فقال: الله أكبر! الآن تم أمرنا وغلبنا بحول الله تعالى وقوته، وأدنى منزلة أبي غالب لما ملك، ولم يزل حاجبه حتى مات عبد الرحمن. وبادر عبد الرحمن بالدخول إلى المركب، فلما هم بذلك أقبل البربر فتعرضوا دونه، ففرقت فيهم من مال كان مع تمام صلات على أقدارهم، حتى لم يبق أحد حتى أراضاه، فلما صار عبد الرحمن بداخل المركب أقبل عاتٍ منهم لم يكن أخذ شيئاً فتعلق بحبل اليهودج يعقل المركب، فحول رجل اسمه شاكر يده بالسيف، فقطع يد البربري، وأعانتهم الريح على التوجه بمركبهم، حتى حلوا بساحل البيرة في جهة المنكب، وذلك في ربيع الآخر سنة ١٣٨، فأقبل إليه نقيباه أبو عثمان وصهره أبو خالد، فنقلاه قرية طرش^(١) منزل أبي عثمان، فجاءه يوسف بن بخت، وانثالت عليه الأموية، وجاءه جدار بن عمرو المذحجي من أهل مالقة، فكان بعد ذلك قاضيه في العساكر، وجاءه أبو عبدة حسان بن مالك الكلبى من إشبيلية فاستوزره، وانثالت عليه الناس انثيالاً، فقوي أمره مع الساعات فضلاً عن الأيام، وأمه الله تعالى بقوة عالية، فكان دخوله قرطبة بعد ذلك بسبعة أشهر... (٢).

وفي تلك الأثناء كان يوسف بن عبد الرحمن الفهري المتغلب على الأندلس قد انتصر على الثائرين عليه في سرقسطة عامر العبدري، والحباب الزهري، فلما تم له الأمر بالاستيلاء على سرقسطة والقبض على الزعيمين الثائرين وإعدامهما، وبدأ يتخلص من خصومه الذين كانوا يعارضون بعض تصرفاته حتى تكون الأندلس خالصة له ولذريته من بعده، ولكنه فوجئ بقدوم عبد الرحمن بن معاوية الأموي إلى الأندلس وتأييد موالى الأمويين والقبائل اليمانية له، يقول المقرئ: "... وكان خبر دخوله للأندلس قد

(١) طرش (Torrox) على الساحل الشرقي، وهي تعد اليوم في مديرية مالقة.

(٢) نفع الطيب، ٢ / ٦٥.

صادف صاحبها يوسف الفهري بالثغر، وقد قبض على الحباب الزهري الثائر بسرقسطة، وعلى عامر العبدري الثائر معه، فبينما هو بوادي الرمل بمقربة من طليطلة وقد ضرب عنق عامر العبدري وابن عامر برأي الصميل إذ جاءه قبل أن يدخل رواقه رسول يركض من عند ولده عبد الرحمن بن يوسف من قرطبة يعلمه بأمر عبد الرحمن ونزوله بساحل جند دمشق، واجتماع الموالي المروانية إليه، وتشوف الناس لأمره، فانتشر الخبر في العسكر لوقته، وشمته الناس بيوسف لقتله القرشيين عامراً وابنه، وختره بعدهما، فسارع عدد كثير إلى البدار لعبد الرحمن الداخل، وتنادوا بشعارهم، وقوضوا عن عسكره، واتفق أن جادت السماء بوابلٍ لا عهد بمثله لما شاء الله تعالى من التضييق على يوسف، فأصبح وليس في عسكره سوى غلمانة وخاصته وقوم الصميل قيس وأتباعه... ” (١)

لهذا بدأ يضع يوسف الفهري الخطط للتخلص منه، وقد شاور الصميل في أمره فأشار عليه بالمكر والخديعة ومخادعته وهون عليه أمره، لحدائثة سنة، وقال: ” هو قريب عهد بزوال النعمة، فهو يغتنم ما تدعو إليه، ثم أنت بعد ذلك متحكم فيه والذين سعوا له بما تحب ” (٢) وأشار عليه باغرائه وأن يعرض عليه مصاهرتة، فأرسل إليه يوسف وهو ما يزال بطرش يعرض عليه أن يزوجه بابنته ويقطعه كورة البيرة (غرناطة) أو كورة رية أو يقطعه ما بينهما، وبعث إليه هدية وشيئاً من المال وكتاباً طويلاً يرغبه فيه بمخالفته. يقول فيه: ”... أما بعد، فقد انتهى إلينا نزولك بساحل المنكب، وتأبش من تأبش إليك ونزع نحوك من السراق وأهل الختر والغدر ونقض الأيمان المؤكدة، التي كذبوا الله فيها وكذبونا! وبه - جل وعلا! - نستعين عليهم! ولقد كانوا معنا في نرى كنف ورفاهية غبش، حتى عصموا

(١) نفع الطيب، ٦٥ / ٢.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ٤٥ / ٢، المقري، نفع الطيب، ٦٥ / ٢.

ذلك، واستبدلوا بالأمن خوفاً، وجنحوا إلى النقض! والله من ورائهم محيط! فإن كنت تريد المال وسعة الجناب، فأنا أولى لك ممن لجأت إليه! أكنفك، وأصل رحمك، وأنزلك معي إن أردت وبحيث تريد! ثم لك عهد الله وذمته في ألا أغدر بك، ولا أمكن منك ابن عمي صاحب إفريقية ولا غيره!^(١)

ولكن من حول عبد الرحمن الأموي نصحوه بعدم الاغترار بتلك الوعود الزائفة، قال ابن عذاري: "... قال ابن عيسى: فحدثني تمام بن علقمة أن عبد الرحمن، لما أتاه كتاب الفهري بما فيه وبتزويجه ابنته، أشار عليه كل من أتاه من العرب والأمويين ألا يقبل ذلك منه، إلا أن يعتزل له عن الملك ويبايعه، وإلا حاكمه إلى الله؛ وقالوا له: إنما يمكر بك، ولا يفي لك بشيء، لأن وزيره ومالك أمره الصميل، وهو غير مأمون!..."^(٢).

وفي تلك الأثناء قوي ساعد عبد الرحمن الأموي بعد أن توافقت عليه وفود القبائل اليمنة مؤيدة مبايعة له، من أرجاء الأندلس "... ثم انتقل من البيرة إلى كورة رية، إلى شذونة، إلى مورور، إلى كورة إشبيلية، والناس يتلقونه بالبشر والترحيب، ويعطونه من الانقياد والطاعة أوفى نصيب..."^(٣).

وفي الوقت الذي كانت دائرة التأييد تزداد اتساعاً في بقاع الأندلس لعبد الرحمن الأموي، وبدأت جموع المؤيدين والمتطوعين تلتف حوله، كانت القبائل العربية والبربرية تنفض من حول يوسف الفهري والصميل، وقد وهن جيشه وتفرق معظمه خلال الفتن والغزوات المتوالية، وجاءت دعوة عبد الرحمن الأموي فزادته تفرقا وضعفاً، وبدأ عبد الرحمن الأموي يتحرك بقواته باتجاه قرطبة،

(١) البيان المغرب، ٢ / ٤٧.

(٢) البيان المغرب، ٢ / ٤٧.

(٣) البيان المغرب، ٢ / ٤٧.

وخرج يوسف بقواته إلى المصاراة^(١) في ظاهر قرطبة من الغرب على ضفة نهر الوادي الكبير، وكان عبد الرحمن قد أشرف بجيشه على ضفة النهر الجنوبية، في قرية مقابلة تسمى " بلة نوبة " ونسبت بين الفريقين معركة عنيفة ولكن قصيرة، فلم يأت الضحي حتى مزقت خيل يوسف، وهزم جيشه هزيمة شديدة ونهبت أسلابه، وقتل كثير م وجوه القيسية والفهرية، وفر يوسف صوب طليطلة، حيث كان ولده عبد الرحمن، وفر الصميل صوب جيان، ودخل عبد الرحمن الأموي وصحبه قرطبة دون معارضة، وحمل جنده ما استطاع على الاعتدال والقناعة، وحمي أسر خصومه وحریمهم وأموالهم من العبث، وصلى الجمعة في الجامع، ثم نزل بالقصر، وبويع في الحال بالإمارة، وذلك في العاشر من ذي الحجة سنة ١٣٨هـ / ١٣ مايو سنة ٧٥٦م^(٢).

بدأ عبد الرحمن الداخل ينظم الأمور في بلاد الأندلس، كانت هناك ثورات كثيرة جداً في كل مكان من أرض الأندلس، وبصبر شديد وأناة عجيبة أخذ عبد الرحمن الداخل يراوض هذه الثورات الواحدة تلو الأخرى، وبحسب ما يتوافق معها أخذ يستميل بعضها ويحارب الأخرى.

وفي فترة حكمه التي امتدت أربعة وثلاثين عاما متصلة، من سنة ثمان وثلاثين ومائة وحتى سنة اثنتين وسبعين ومائة كانت قد قامت عليه أكثر من خمس وعشرين ثورة، وهو يقمعها بنجاح عجيب

(١) المصاراة: تتطرق في المصادر الأوربية alameda الأמידة وأصل هذه الكلمة لاتيني وهو almeo أي شجر الصفصاف أو الحور وهو شجر طويل عريض الأوراق، والمكان الذي يكثر فيه يسمى (الأמידية) وهذا الاسم منتشر في إسبانيا ويطلق على المكان الممتد في جنوب غرب قرطبة على الوادي الكبير، وتسميه المصادر العربية المصاراة أو المسارة وفيه حدثت الواقعة الفاصلة التي انتصر فيها عبدالرحمن الداخل الأموي على يوسف الفهري وأسس على أثرها الدولة الأموية الأندلسية.

(٢) البيان المغرب، ٢ / ٤٨ - ٤٩، نفح الطيب، ٢ / ٦٥ - ٦٦.

الواحدة تلو الأخرى، ثم تركها وهي في فترة من أقوى فترات الأندلس في التاريخ بصفة عامة.

وقد حاولت الدولة العباسية جاهدة أن تصل إلى الأندلس وتقضي على عبد الرحمن الداخل ولكن جميع المحاولات باءت بالفشل. وقيل: إن أبا جعفر المنصور كان أرسل إلى العلاء بن مغيث بولاية الأندلس. فنشر الأعلام السود، وقام بالدعوة العباسية بالأندلس؛ فأنحسر إليه الناس. ولما ظفر به عبد الرحمن بن معاوية، أخذ رأسه، وفرغ وحشي ملحاً وصبراً، وجعل معه لواء أبي جعفر المنصور، وأدخل في سفط؛ وبعثه مع رجال، وأمرهم أن يضعوا السفط بمكة؛ فوافقوا المنصور بها حاجاً في تلك السنة؛ فجعل السفط عند باب سرادقه. فلما نظر إلى ما فيه، قال: (إنا لله! عرضنا بهذا المسكين للقتل! الحمد لله الذي جعل البحر بيننا وبين هذا الشيطان!) يعني عبد الرحمن... ” (١).

لم يحاول المنصور العباسي أن يُعيّن على الأندلس أحدًا بعد هذا الذي قُتل، ولم يحاول أن يرسل جيشاً لحربه، بل فضّل أن يقر بالأمر الواقع ويعترف له بلقب: ” صقر قریش ”، فقد أطلق عليه أبو جعفر المنصور هذا اللقب لاعتزافه بشجاعته وقوته، فيروى أن أبا جعفر قال يوماً لبعض جلسائه: ” أخبروني من صقر قریش من الملوك؟ قالوا: ذلك أمير المؤمنين الذي راضى الملوك، وسكن الزلازل، وأباد الأعداء، وحسم الأدواء (يقصدون أبا جعفر المنصور). قال: ما قلتم شيئاً. قالوا: فمعاوية؟ قال: لا. قالوا: فعبد الملك بن مروان؟ قال ما قلتم شيئاً. قالوا: فمن يا أمير المؤمنين؟ قال صقر قریش عبد الرحمن بن معاوية الذي عبر البحر، وقطع الفقر، ودخل بلدًا أعجميًا منفردًا بنفسه فمصرّ الأمصار، وجنّد الأجناد، ودوّن الدواوين، ونال ملكًا بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمته، إن معاوية نهض بمركب

(١) البيان المغرب، ٢ / ٥٢.

حملة عمر و عثمان عليه وذللاً له صعبه، و عبد الملك ببيعة أبرم عقدها، وأمير المؤمنين بطلب عترته واجتماع شيعته، و عبد الرحمن منفرد بنفسه، مؤيد بأمره مستصحب لعزمه، فمد الخلافة بالأندلس، وافتتح الثغور وقتل المارقين و أذل الجابرة الثائرين ” (١).

وَكَانَ الْمَنْصُورُ يَقُولُ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُعَاوِيَةَ: ذَاكَ صَقْرٌ قُرَيْشِيٌّ، دَخَلَ الْمَغْرِبَ وَقَدْ قُبِلَ قَوْمُهُ، فَلَمْ يَزَلْ يَضْرِبُ الْعَدَنَانِيَّةَ بِالْقَحْطَانِيَّةِ حَتَّى مَلَكَ لِرَقِي هِمَّتَهُ وَبَعْدَ مَطْمَحِهِ (٢).

والحقيقة التي لا يمكن إغفالها أنه لولا عبد الرحمن الداخل لانتهى الإسلام من الأندلس بالكلية، هكذا قال المؤرخون عن عبد الرحمن بن معاوية، وانا لتعلونا الدهشة ويتملكننا العجب حين نعلم أن عمره حينذاك لم يتجاوز الخامسة والعشرين عاماً، أي في سن خريج جامعة في العصر الحديث.

مَلِكٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَمْ مَاذَا هُوَ؟! لَنْ نَذْهَبَ بَعِيدًا، وَسَنْتَرِكُ الْحَدِيثَ عَنْهُ إِلَى ابْنِ حَيَّانِ الْأَنْدَلِسِيِّ، وَلْنَعْيَ مَا يَقُولُهُ عَنْهُ، يَقُولُ ابْنُ حَيَّانِ مُسْتَعْرِضًا بَعْضًا مِنْ صِفَاتِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْدَاخِلِ: ” أَلْفَى الْدَاخِلِ - عَبْدِ الرَّحْمَنِ - الْأَنْدَلِسِ ثَغْرًا قَاصِيًا غَفْلًا مِنْ حَلِيَةِ الْمَلِكِ عَاطِلًا، فَأَرْهَفَ أَهْلَهَا بِالطَّاعَةِ السُّلْطَانِيَّةِ، وَحَتَّكَهُمُ بِالسَّيْرَةِ الْمُلُوكِيَّةِ، وَأَخَذَهُمْ بِالْأَدَابِ فَأَكْسَبَهُمْ عَمَّا قَلِيلٍ الْمَرْوَةَ، وَأَقَامَهُمْ عَلَى الطَّرِيقَةِ، وَبَدَأَ فِدْوْنَ الدَّوَاوِينِ، وَرَفَعَ الْأَوَاوِينَ، وَفَرَطَ الْأَعْطِيَةَ، وَعَقَدَ الْأَلْوِيَةَ، وَجَنَّدَ الْأَجْنَادَ، وَرَفَعَ الْعَادَ، وَأَوْثَقَ الْأَوْتَادَ، فَأَقَامَ لِلْمَلِكِ آلَتَهُ، وَأَخَذَ لِلسُّلْطَانِ عَدَّتَهُ، فَاعْتَرَفَ لَهُ بِذَلِكَ أَكْبَارُ الْمُلُوكِ وَحَذَرُوا جَانِبَهُ، وَتَحَامَمُوا حُوزَتَهُ، وَلَمْ يَلْبِثْ أَنْ دَانَتْ لَهُ بِلَادُ الْأَنْدَلَسِ، وَاسْتَقَلَّ لَهُ الْأَمْرُ فِيهَا.

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، تحقيق الناشر دار إحياء التراث العربي، سنة

النشر ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، مكان النشر بيروت /لبنان، ٤ / ٤٤٨، أحمد زكي صفوت،

جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية - بيروت، ٣ / ٣٣.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٥ / ٢٥٢، الذهبي، تاريخ الإسلام، ١١ / ٢٤١.

فلذلك ما ظلّ عدوّه أبو جعفر المنصور - بصدق حسّه، وبعد غوره، وسعة إحاطته - يسترجح عبد الرحمن كثيراً، ويعد له بنفسه، ويكثر ذكره، ويقول: لا تعجبوا لامتناد أمرنا مع طول مراسه وقوة أسبابه، فالشأن في أمر فتى قريش الأحوذّي الفذّي في جميع شؤونه، وعدمه لأهله ونشبهه، وتسليّيه عن جميع ذلك ببعده مرقى همّته، ومضاء عزيمته، حتى قذف نفسه في لجج المهالك لا بتناء مجده، فافتحم جزيرة شاسعة المحل، نائية المطمع، عصبية الجند، ضرب بين جندها بخصوصيته، وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته، واستمال قلوب رعيّتها بقضية سياسته، حتى انقاد له عصيّهم، وذلّه أبيهم، فاستولى فيها على أريكته، ملكاً على قطعتة، قاهراً لأعدائه، حامياً لذماره، مانعاً لحوزته، خالطاً الرغبة إليه بالرغبة منه، إن ذلك لهو الفتى كلّ الفتى لا يكذب مادحه. وجعل ابن حيان من النوادر العجيبة موافقة عبد الرحمن هذا لأبي جعفر المنصور في الرجولية والاستيلاء والصّرامة، والاجتراء... على الكبائر والقساوة، وأنّ أم كل واحد منهما بربرية. وكان الداخل يقعد للعامّة، ويسمع منهم، وينظر بنفسه فيما بينهم، ويتوصل إليه من أراده من الناس، فيصل الضعيف منهم إلى رفع ظلامته إليه دون مشقة، وكان من عادته أن يأكل معه من أصحابه من أدرك وقت طعامه، ومن وافق ذلك من طلاب الحوائج أكل معه.

وفي كتاب ابن زيدون أنّه كان أصهب، خفيف العارضين، بوجهه خالّ، طويل القامة، نحيف الجسم، له ضفیرتان، أعور أخشم؛ والأخشم: الذي لا يشم، وكان يلقب بصقر قريش لكونه تغرب وقطع البر والبحر، وأقام ملكاً قد أدبر وحده.

ولمّا ذكر الحجاري أنّه أعور قال: ما أنشد فيه إلا قول امرئ القيس:

لكن عـویر وفي بذمّته :: لا عـورٌ شأنه ولا قصر

وقال ابن خلدون: وفي " سنة ست وأربعين سار العلاء بن مغيث اليحصبي من إفريقية إلى الأندلس، ونزل بباجة الأندلس داعياً لأبي جعفر المنصور، واجتمع إليه خلق، فسار عبد الرحمن إليه ولقيه بنواحي إشبيلية، فقاتله أياماً، ثم انهزم العلاء، وقتل في سبعة آلاف من أصحابه، وبعث عبد الرحمن برؤوس كثير منهم إلى القيروان ومكة، فألقيت في أسواقها سرّاً، ومعها اللواء الأسود، وكتاب المنصور للعلاء، فارتاع المنصور لذلك وقال: ما هذا إلا شيطان، والحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر، أو كلاماً هذا معناه، وقد مرّ ذكر ذلك... وكثرت ثورة رؤساء العرب بالأندلس على عبد الرحمن الداخل، وناقسوه ملكه، ولقي منهم خطوباً عظيمة، وكانت العاقبة له، واستراب في آخر أمره بالعرب، لكثرة من قام عليه منهم، فرجع إلى اصطناع القبائل من سواهم، واتخاذ الموالي، ثم غزا بلاد الإفرنج والبشكنس ومن وراءهم، ورجع بالظفر، وكان في نسته أن يجدد دولة بني مروان بالمشرق، فمات دون ذلك الأمل، وكانت مدة ملكه ثلاثاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر، إذ دخل الأندلس سنة ثمان وثلاثين ومائة، ومات سنة اثنتين وسبعين، وقيل: إحدى وسبعين ومائة، في خلافة الرشيد، وأمّه أم ولد بربرية اسمها راح، ومولده سنة ثلاث عشرة ومائة، بدير حنا من أرض دمشق، وقيل: بالعلياء من تدمر، ومات أبوه في أيام أبيه هشام سنة ثمانى عشرة عن إحدى وعشرين سنة، وكفله وإخوته جدّهم هشام، ووهب لعبد الرحمن هذا جميع الأخماس التي اجتمعت للخلفاء بالأندلس، وأقطعته إيّاه، ووجّه لحيازتها من الشام سعيد بن أبي ليلى، وقيل: إنّه لما قصد المغرب من فلسطين خرج معه أربعة: بدر مولى أبيه، وأبو شجاع، وزيايد، وعمرو، وقيل: إن بدرّاً لحقه ولم يخرج معه، فأنه أعلم، وخلف من الولد عشرين، ومنهم أحد عشر رجلاً وتسع إناث.

وحكى غير واحد أنّه لما هرب من الشام إلى إفريقية قاصداً الأندلس نزل بمغيلة، فصار بها عند شيخ من رؤساء البربر يدعى وانسوس،

ويكنى أبا قرّة، فاستتر عنده وقتاً، ولحق به بدر مولى أبيه بجوهر وذهب أنفذته أخته إليه، فلما دخل الأندلس واستتب أمره به سار إليه أبو قرّة وانسوس البربري، فأحسن إليه وحظي عنده وأكرم زوجته تكفات البربرية التي خبأته تحت ثيابها عندما فتشت رسل ابن حبيب بيتها عنه، فقال لها عبد الرحمن مداعباً حين استطلت بظّله في الأندلس: لقد عذبتني بريح إبطيك يا تكفات على ما كان بي من الخوف، وسعطتني بأنتن من ريح الجيف، فكان جوابها له مسرعة: بل ذلك كان والله يا سيدي منك خرج ولم تشعر به من فرط فزعك، فاستظرف جوابها، وأغضى عن مواجهتها بمثل ذلك، وهذا من آفات المزاح... " (١).

كان عبد الرحمن الداخل راجح العقل، راسخ الحلم، واسع العلم، ثاقب الفهم، كثير الحزم، نافذ العزم، بريئاً من العجز، سريع النهضة، متصل الحركة، لا يخلد إلى راحة، ولا يسكن إلى دعة، بعيد الغور، شديد الحدة، قليل الطمأنينة، بليغاً مفوّهًا، شاعرًا محسنًا، سمحًا سخياً، طلق اللسان، وكان قد أعطي هيبة من وليه وعدوه، وكان يحضر الجنائز ويصلي عليها، ويصلي بالناس الجمع والأعياد إذا كان حاضرًا، ويخطب على المنبر، ويعود المرضى.

شخصية تُشخص الأبصار وتبهر العقول، فمع رجاحة عقله وسعة علمه كان لا ينفرد برأيه، فإذا اجتمعت الشورى على رأي كان نافذ العزم في تطبيقه رحمه الله، ومع شدته وحزمه وجهاده وقوته كان رحمه الله شاعرًا محسنًا رقيقًا مرفه المشاعر.

ومع هيئته عند أعدائه وأوليائه إلا أنه كان يتبسط مع الرعية، ويعود مرضاهم، ويشهد جنائزهم، ويصلي بهم ومعهم، ومع كونه شديد الحذر قليل الطمأنينة، فلم يمنعه ذلك من معاملة الناس والاختلاط بهم ودون حراس، حتى خاطبه المقربون في ذلك وأشاروا عليه ألا يخرج في أوساط الناس حتى لا يتبسطوا معه،

(١) المقرئ، نفح الطيب، ١ / ٣٣١.

ولكن كيف يمتنع عن شعبه وهو المحبوب بينهم والمقرَّب إلى قلوبهم؟! ولقد صدق من قال حكمت فعدلت فأمنت فنمت يا عمر.

ومن شعره قوله، وقد نظر إلى نخلة بمنية الرصافة، مفردة، هاجت شجنه إلى تذكر بلاد المشرق:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة :: تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
 فقلت شيهي في التغرب والنوى :: وطول التناهي عن بني وعن أهلي
 نشأت بأرض أنت فيها غريبة :: فمثلك في الإقصاء والنتأى مثلي
 سقتك غواذي المزن من صوبها الذي :: يسح ويستمرئ السماكين بالوبل
 وغمر الهول كقطع الليل :: بفتنة الفهري والصيل
 وجلت الفتنة في أندلس :: فأصبحت فريسة المفترس
 فأسرع السير إليها وابتدر :: وكل شيء بقضاء وقدر
 صقر قريش عابد الرحمن :: باي المعالي لبني مروان
 جدد عهد الخلفاء فيها :: وأسس الملك لمترفيها
 ثم أجاب داعي الحمام :: وخلف الأمر إلى هشام
 وقام بالأمر الحفيد الناصر :: والناس محصور بها وحاصر
 فأقبل السعد وجاء النصر :: وأشرق الأمن وضاءت القصر
 وعادت الأيام في شباب :: وأصبح العدو في تباب
 سطي وأعطى وتغاضى ووفى :: وكلما أقدره الله عفا
 فعاد من خالف فيها وانتزا :: وحارب الكفار دأباً وغزا
 وأوقع الروم به في الخندق :: فانقلب الملك بسعي مخفق
 واتصلت من بعد ذا فتوح :: تغدو على مشواه أو تروح
 فاغتنموا السلم لهذا الحين :: ووصلت إرسال قسطنطين
 وساعد السعد فنال واقتنا :: ثم بني الزهرا فيما قد بنا
 حتى إذا ما كملت أيامه :: سبحان من لا ينقضي دوامه^(١)

(١) أبو عبد الله بن سعد بن أحمد السلماني (لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار

فكان له حقاً أن يأتي إلى هذه البلاد وحيداً مطارداً مطلوب الرأس، تجري وراءه قوى الأرض جميعاً، فعباسيون في المشرق، وخوارج في المغرب، ومن بعدهم نصارى في الشمال، وثورات في الداخل، ثم هو يقوم وسط هذه الأجواء بتأسيس هذا البنيان القوي، وهذه الدولة الإسلامية ذات المجد التليد.

ونستطيع أن نفهم شخصيته بصورة أوضح حين نعلم كيف كان في معاملته للناس، فقد قال الرازي: " ... قام بين يديه رجل من جند قنسرين، يستنجد به، وقال له: يا بن الخلايف الراشدين والسادات الأكرمين، إليك فررنا، وبك عذت من زمن ظلوم، ودهر غشوم، قلل المال، وذهب الحال، وصير إلى بذاك المنال، فأنت ولي الحمد، وربى المجد، والمرجو للرفد. فقال له ابن معاوية مسرعاً: قد سمعنا مقاتلك، فلا تعودن ولا سواك لمثله، من إراقة وجهك، بتصريح المسألة، والإلحاف في الطلبة، وإذا ألم بك خطب أو دهاك أمر، أو أحرقتك حاجة فارعه إلينا في رقعة لا تعدو ذكياً، تستر عليك خلتك، وتكف شماتة العدو بك، بعد رفعها إلى مالكننا ومالكها، عن وجهه، بإخلاص الدعاء، وحسن النية. وأمر له بجائزة حسنة. وخرج الناس يعجبون من حسن منطقته، وبراعة أدبه... " (١).

إنها لتربية ربانية لشعبه، كل شعبه، فهو يريد رحمه الله أن يربط الناس بخالقهم، يريد أن يعلمهم أن يرفعوا حاجتهم إليه أولاً سبحانه وتعالى، يريد أن يعلمهم أنه سبحانه وتعالى يملكه ويملكهم جميعاً، ثم مراعاة لعواصف النفس الداخلية، وحفظاً لماء وجه الرعية عند السؤال قال له: فارفع إلينا حاجتك في رقعة كي نستتر عليك ولا يشمت أحد فيك.

* * *

غرناطة، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية - لبنان / بيروت - ٢٠٠٣ هـ - ١٤٢٤ هـ، تحقيق: د. يوسف على طویل، ٣ / ٣٥٧ - ٣٥٨.
(١) لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ٣ / ٣٥٧.

المعتمد بن عباد

من مشاهير أعلام المسلمين

المعتمد بن عباد

هو محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل اللخمي يلقب بأبي القاسم المعتمد على الله حكم إشبيلية وقرطبة وما حولهما، وهو وأحد أفراد الدهر شجاعة وحزماً وضبطاً للأمر. ولد في باجة بالأندلس وولي إشبيلية بعد وفاة أبيه سنة ٤٦١ هـ وامتلك قرطبة وكثيراً من المملكة الأندلسية.

واتسع سلطانه إلى أن بلغ مدينة مرسية، وأصبح محط الرجال يقصده العلماء والشعراء والأمراء، وما اجتمع في باب أحد من ملوك عصره ما اجتمع في بابيه من أعيان الأدب.

وكان فصيحاً شاعراً وكاتباً مترسلاً بديع التوقيع له ديوان شعر.

وقيل: هو من ذرية النعمان بن المنذر صاحب الحيرة.

وأصله من الشام من بلدة العريش المصرية، فقد دخل أبوه القاضي أبو الوليد إسماعيل بن قريش إلى الأندلس، ثم برع القاضي في الفقه، وولي القضاء، ثم تملك مدة، وقام من بعده ابنه المعتضد، فساس المملكة بإشبيلية، وبايعوه بالملك في سنة ثلاث وثلاثين وأربع مئة، وكان المعتضد شهماً، صارماً، داهية، ذبح جماعة من أعوان أبيه، وصادرهم، وعلا شأنه، ودانت له الامم.

وبلغ من شدة قسوته وجبروته أنه نصب خشباً في قصره، وعمها برؤوس كبار وملوك، ولذا كانوا يشبهونه بالمنصور العباسي.

وقد حاول ابنه إسماعيل اغتياله، فأخذه، وضرب عنقه، وعهد إلى ابنه المعتمد.

ومن جبروته وعتوه أنه أخذ مالا لأعمى، فهج وجاور بمكة، فبلغ المعتضد أنه يدعو عليه، فندب رجلا أعطاه جملة دنانير مطلية بسم، فسار إلى مكة، وأوصله الذهب، فقال: يظلمني بإشبيلية، ويصانني هنا؟! ثم وضع منها دينارًا في فمه كعادة الأضراء، فمات من الغد. وهرب منه مؤذن إلى طليطلة، فبقي يدعو عليه في السحر، فنفذ من جاءه برأسه.

لما توفي المعتضد بن عباد خلفه يوم وفاته ولده محمد بن عباد، الملقب بالظافر، والمؤيد بالله، والمعتمد على الله، وهو اللقب الذي غلب عليه واشتهر به طوال حياته.

وكان المعتمد يوم جلوسه على عرش مملكة إشبيلية فتياً في الثلاثين من عمره^(١).

ومن الأحداث المهمة التي وقعت في عهد المعتمد بن عباد، ما كان من وزيره، أبو بكر محمد بن عمار بن الحسين بن عمار المهري، وكان هذا الوزير من المعروفين بالأدب والشعر، وكثيراً ما مدح الوزراء والخلفاء لا سيما بني عباد، وقد لازم المعتمد بن عباد في شبابه، لا سيما عندما عهد إليه أبوه المعتضد بحكم مدينة شلب، ثم لما توفي المعتضد وآل الأمر للمعتمد بن عباد، جعل هذا الوزير في ركابه، وجعل منه ليس وزيره فقط بل ساعده الأيمن في جميع أموره ولم يكن يقدر على فراق طويل، ونال ابن عمار الحظوة والمكانة لدى المعتمد لسنوات طويلة، وأنجز له الكثير من الأعمال المهمة، إلى أن فسد الجو بينهما بسبب تدخل الرميكية زوجة المعتمد، فكان ذلك إيذاناً بنكباته.

وكانت البداية نجاح الوزير ابن عمار والقائد عبد الرحمن بن رشيق، في الاستيلاء على مدينة مرسية من قائدها أبو عبد الرحمن

(١) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣ / ٥٩.

بن طاهر، سنة ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م^(١) وهنا بدأ النكبة إذ طمع الوزير ابن عمار في حكم المدينة حكماً فردياً بعيداً عن سلطة المعتمد بن عباد، وبدأ يستقل بالمدينة بعيداً عن كل سلطة لابن عباد، كما أنه أهمل جانب ابن رشيق الفاتح الحقيقي للمدينة، الذي بدأ يتربص بابن عمار، ويتحين فرصة الوثوب إلى سدة المدينة، واستغل خروج ابن عمار عن مرسية لزيارة بعض الحصون الخارجية، فوثب ابن رشيق واستولي على المدينة، وأغلق أبوابها في وجه ابن عمار، فكانت تلك الضربة خير جزاء له على خيانتته.

ففر ابن عمار إلى بلاط ألفونسو السادس يطلب المساعدة ولكن ألفونسو رفض ذلك الطلب، فرحل إلى سرقسطة وكان أميرها ابن هود الذي توفي فخلفه ابنه المؤتمن سنة ٤٧٥ هـ / ١٠٨١ م الذي أغرى ابن عمار بمهاجمة حصن شقورة مع جماعة من أصحابه، وكان صاحب الحصن رجلاً داهية يدعى ابن مبارك فدعا ابن عمار مع صحبه إلى دخول الحصن، انخدع لحفاوة الاستقبال، فما كان من ابن المبارك إلا أن ألقى القبض عليه في ربيع الأول سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م.

لما علم المعتمد بن عباد بذلك طلب من ابن المبارك تسليمه ابن عمار لقاء هدية كبيرة من الأموال والخيل، فسلمه لرسول المعتمد وزج به في غياهب السجن، وأخذ ابن عمار يرسل إلى القصائد الوجدانية مستعطفاً. وكاد المعتمد أن يطلق سراحه لولا وشاية أعدته في البلاط وعلى رأسهم الوزير أبو بكر بن زيدون، وأخرجوا للمعتمد قسيده يعرض فيها باعتماد الرميكية زوجة المعتمد، عندها أقدم المعتمد على قتل وزيره بيده سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٥ م^(٢).

وفي تلك الأثناء كانت قوة ألفونسو السادس في ازدياد وغدا

(١) أعمال الأعلام، ص ١٦٠.

(٢) المقرئ، نفح الطيب، ١، ٤٥١ - ٤٥٢.

ملوك الطوائف يستنصرونه على بعضهم البعض، وكان يخطط للاستيلاء على أملاك ملوك الطوائف الواحدة تلو الأخرى، وكان ألفونسو قد استولى على طليطلة سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م، ثم وضع خطته القاضية بالاستيلاء على ملوك الطوائف ويلتهم المدينة تلو الأخرى، ومن ثم بدأ يضع خطته لتنفيذ الخطوة التالية، وذلك بالاستيلاء على مملكة إشبيلية، أهم دول الطوائف وأقواها فوجه رسالة إلى المعتمد بن عباد ملؤها التهديد والوعيد ويطالبه بتسليم أعماله ويحذره من مثل مصير طليطلة ومحنتها، فقد قال ألفونسو في رسالته: "... من الإمبراطور ذي الملتين الملك أدفونش بن شانجة، إلى المعتمد بالله، سدّد الله آراءه، وبصره مقاصد الرشاد. قد أبصرت تزلزل أقطار طليطلة، وحصارها في سالف هذه السنين، فأسلمتم إخوانكم، وعطّلتكم بالدّعة زمانكم، والحذر من أيقظ باله قبل الوقوع في الحباله. ولولا عهد سلف بيننا نحفظ ذمامه نهض العزم، ولكن الإنذار يقطع الإعدار، ولا يعجل إلا من يخاف الفوت فيما يرومه، وقد حمّلتنا الرّسالة إليك السيّد البرهانس، وعنده من التّسديد الذي يلقي به أمثالك، والعقل الذي يدبّر به بلادك ورجالك، ما أوجب استنابته فيما يدق ويجلّ.

ولما ورد الكتاب على المعتمد بن عباد استشار وزراءه وخاصته فكان منهم من أرجف وارتعدت فرائصه، خوفاً من ألفونسو السادس ومنهم من رأى ضرورة إعلان الجهاد في سبيل الله ضد ألفونسو السادس، في حين كان رأي المعتمد بن عباد هو محاربة ألفونسو والاستنجاد بالمرابطين في المغرب والاستعانة بهم في قتاله. يقول الذهبي: " فلما قدم الرسول أحضر المعتمد الأكابر، وقرئ الكتاب، فبكى أبو عبد الله بن عبد البرّ وقال: قد أبصرنا ببصائرنا أنّ مآل هذه الأموال إلى هذا، وأن مسالمة العين قوّة بلاده، فلو تضافرنا لم نصبح في التّلاف تحت ذلّ الخلاف، وما بقي إلا الرجوع إلى الله والجهاد. وأما ابن زيدون وابن لبون فقالا: الرأي مهادنته ومسالمته. فجنح

المعتمد إلى الحرب، وإلى استمداد ملك البربر، فقال جماعة: نخاف عليك من استمداده. فقال: رعي الجمال خيرٌ من رعي الخنازير.

ثم أخذ وكتب جواب أدفونش بخطه، ونصّه:

الذَّلَّ تَأْبَاهُ الْكِرَامُ وَدِينَا :: لَكَ مَا نَدِينُ بِهِ مِنَ الْبِأْسَاءِ
سَمْنَاكَ سَلَامًا مَا أُرِدْتُ وَبَعْدَ ذَا :: نَغْزُوكَ فِي الْإِصْبَاحِ وَالْإِمْسَاءِ
اللَّهُ أَعْلَىٰ مِنْ صَالِيكَ فَادْرِعْ :: لَكْتُيْتَهُ خَطْبَتِكَ فِي الْهَيْجَاءِ
سُودَاءِ غَابَتْ شَمْسُهَا فِي غَيْمِهَا :: فَجَرَتْ مَدَامِعُهَا بِفَيْضِ دِمَائِهَا
مَا بَيْنَنَا إِلَّا التَّنْزَالُ وَفِتْنَةٌ :: قَدَحْتَ زِنَادَ الصَّرِّ فِي الْغَمَاءِ

من الملك المنصور بفضل الله المعتمد على الله محمد بن المعتضد بالله، إلى الطاغية الباغية أدفونش الذي لُقّب نفسه ملك الملوك، وتسمّى بذي الملتين. سلام على من اتّبع الهدى، فأول ما نبأ به من دعواه أنه ذو الملتين والمسلمون أحقّ بهذا الاسم لأنّ الذي نملكه من نصارى البلاد، وعظيم الاستعداد، ولا تبلغه قدرتك، ولا تعرفه ملتكم. وإنما كانت سنة سعدٍ اتّعظ منها مناديك، وأغفل عن النّظر السّديد جميل مناديك، فركبنا مركب عجز يشحذ الكيس، وعاطيناك كؤوس دعة، قلت في أثنائها: ليس. ولم تستح أن تأمر بتسليم البلاد لرجالك، وأنا لنعجب من استعجالك وإعجابك بصنع وافقك فيه القدر، ومتى كان لأسلافك الأخدمين مع أسلافنا الأكرمين يدّ صاعدة، أو وقفة مساعدة، فاستعد بحرب، وكذا وكذا.. إلى أن قال: فالحمد لله الذي جعل عقوبة توبيخك وتقريعك بما الموت دونه، والله ينصر دينه ولو كره الكافرون، وبه نستعين عليك. ثم كتب إلى يوسف ابن تاشفين يستجده.. ” (١).

وفى السابع والعشرين من المحرم سنة ٤٧٨ هـ - الخامس

(١) شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، نشر دار الكتاب العربي، لبنان/ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، ٣٢ / ٢٦.

والعشرين من أيار " مايو " سنة ١٠٨٥م استطاع ألفونسو السادس أن يدخل طُليطلة " عاصمة القوط القديمة " ودخلت طُليطلة بذلك إلى حظيرة النصرانية بعد أن حكمها المسلمون ثلاثمائة واثنين وسبعين عامًا، واتخذها ملك قشتالة حاضرة ملكه من ذلك الحين، وأصبحت بذلك عاصمة إسبانيا النصرانية.

وهكذا انتهت دولة ذى النون في طُليطلة لتستمر في بلنسية.

وقد أحدث سقوطها دويًا هائلًا في العالم الغربي وبات المسلمون في حال من الضياع التام، حتى وصل الحد ببعض ملوك الطوائف أن أرسل وفودًا لتهنئة ألفونسو بسيطرته على طليطلة، حتى أن ابن رزين حسام الدولة صاحب شنتمرية ذهب بنفسه لتهنئته يحمل إليه الهدايا النفيسة، فجازاه بأن أعطاه قردها احتقارًا له، بينما اعتبر ابن رزين ذلك مفخرة^(١). وشعر مسلمو الأندلس بأنهم أيتام على موائد اللئام، وبدأوا بمغادرة الأندلس والمناطق القريبة من سيطرة ألفونسو، وفي ذلك يقول عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن العسال الطليطلي:

يا أهل أندلس حثوا مطيتمكم :::: فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى :::: ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا :::: كيف الحياة مع الحيات في سفت^(٢)

وأفقرت مملكة طليطلة من السكان الذين هجروها جماعات إلى بطليوس هربًا من الاضطهاد وحفاظًا على دينهم، وشعر بقية مسلمو الأندلس أن الدور عليهم، وأحس ألفونسو بالزهو والافتخار وبدأ يتقدم صوب مدن الأندلس، فشن الغارات على جميع البلاد، ونجح في

(١) تاريخ ابن الكردبوس، ص ٢٨٨، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٢١٣.

(٢) المقري، نفع الطيب، ٦ / ٨٤، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٥ / ٢٨، تاريخ ابن الكردبوس، ص ٢٨٨، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٢١٣.

الاستيلاء على المدن والقرى ما بين وادي الحجارة إلى طليبرة وفحص اللجج وأعمال شنتمرية كلها^(١)، ولاح له أن نهاية الطوائف قد دنت وأنه سوف يتبع نصرًا بنصر، فبدأ الضغط على الدول الكبرى المجاورة له أي مملكتي بطليوس وإشبيلية، وأرسل إلى المتوكل بن الأفسس صاحب بطليوس يطلب إليه تسليم الحصون والقلاع المتاخمة لحدوده مع تأدية الجزية له، ويتوعد بشر العواقب إذا رفض، وبمثل ذلك للمُعتمد بن عباد. ومارس ألفونسو مع المُعتمَد أنواعًا من الإذلال والتجنى لتخرج المُعتمَد عن طوره ويلغى الاتفاقية الهزيلة بين الطرفين ويجد ألفونسو والنصارى ما يبرر أفعاله الانتقامية والوحشية^(٢).

أمام هذا الضياع المفزع الذي وصلت إليه ممالك الأندلس؛ اجتمع علماء وفقهاء وزعماء قرطبة للتشاور فيما يجب عمله لإنقاذ مدينتهم، ووصل رأيهم بعد تبادل الآراء والأفكار إلى استدعاء المرابطين.

ورأى المُعتمَد أن هذا الرأي فيه صواب ونفاذ بصيرة؛ فجدَّ في تقوية جيشه ورمم الحصون والقلاع، وقرَّر أن يطلب النجدة من إخوانه المُسلمين، وتشاور في الأمر مع ابنه الرشيد وزعماء إشبيلية الذين أشاروا عليه بمهادنة ألفونسو والخضوع لشروطه، ولكن هذا الرأي لم يجد هوى في نفس المُعتمَد الذي خلا بابنه الرشيد وكان ولى عهده وقال له: أنا في هذه الأندلس غريب بين بحر مظلم وعدو مجرم، وليس لنا ولى ولا ناصر إلا الله، وإن إخواننا وجيراننا ملوك الأندلس ليس فيهم نفع، ولا يُرجى منهم نصر، ولا حيلة إن نزل بنا مصاب أو نالنا عدو ثقيل وهو اللعين أذفونش فقد أخذ طُنْطِلَة

(١) تاريخ ابن الكردبوس، ص ٨٧، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٢١٤.

(٢) سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٢١٤.

وعادت دار كفر وها هو قد رفع رأسه إلينا.

وإن نزل علينا طَيْطَلَةٌ ما يرفع عنا حتى يأخذ إشبيلية، ونرى من الرأى أن نبعث إلى هذه الصحراء وملك العدو نستدعيه للجواز إلينا ليدافع عنا الكلب اللعين إذ لا قدرة لنا على ذلك بأنفسنا، فقد تلف لجأؤنا وتدبرت بل تبردت أجنادنا، وبغضتنا العامة والخاصة. فأجابه الرشيد: يا أبت أتدخل علينا في أئدلسنا من يسلبنا ملكنا ويبدد شملنا؟ فقال: أى بنى، والله لا يسمع عنى أبداً أنى أعدت الأندلس دار كفر ولا تركتها للنصارى فتقوم عليّ اللعنة من على منابر المسلمين مثلما قامت على غيري، والله خُرز الجمال عندى خير من خُرز الخنازير^(١).

ولما عزم على طلب النصر من المرابطين؛ كتب رسالة إلى يوسف، هذا نصها: "... لما كان نور الهدى - أيدك الله - دليلك، وسبيل الخير سبيلك، ووضحت في الصلاح معالمك، ووقفت على الجهاد عزائمك، وصحَّ العلم بأنك لدعوة الإسلام أعزُّ ناصر، وعلى غزو الشرك أقدر قادر، وجب أن تستدعى لما عضل الداء، وتستغاث لما أحاط بالجزيرة من البلاء، فقد كانت طوائف العدو المطيف بأحائها عند إفراط تسلطها واعتدائها وشدة كلفها واستشرائها تلاطف بالاحتيال، وتستنزى بالأموال، ويخرج لها عن كل ذخيرة، وتسترضى بكل خطيرة، ولم يزل دأبها التشكك والعناد، ودأبها الإذعان والانقياد حتى نفذ المطارف والتلاد، وأتى على الظاهر والباطن النفاذ، وأيقنوا الآن بضعف المنن، وقويت أطماعهم في افتتاح المدن، واضطربت في كلِّ جهة نارهم، ورويت من دماء المسلمين أسنتهم وشفارهم، ومن أخطئ القتل منهم فإنما هم بأيديهم أسارى وسبايا، يمتحنونهم بأنواع المحن والبلايا، وقد هموا بما أرادوه من التوثب، وأشرفوا على ما أملوه من التغلب، فيا الله ويا للمسلمين أيسطو هكذا بالحق الإفك، ويغلب التوحيد الشرك، ويظهر على الإيمان

(١) الصلابي، دولة المرابطين، ص ٦٨.

الكفر، ولا يكشف هذه البلية النصر، ألا ناصر لهذا المهتم؟ ألا حامى لما استبيح من الحرم؟، وإنا لله على ما لحق عرشه من ثل، وعزه من ذل، فإنها الرزية التي ليس فيها عزاء، والبلية التي ليس مثلها بلاء، ومن قبل هذا ما كنت خاطبتك - أعزك الله - بالنازلة في مدينة قورية أعادها الله وإنها مؤيدة للجزيرة بالخلاء، ومن فيها من المسلمين بالجلاء، ثم ما زال التخاذل يتزايد، والتدابير يتساند حتى تخلصت القضية وتضاعفت البلية وتحصلت في يد العدو مدينة سرية، وعليها قلعة تجاوزت حد القلاع في الحصانة والامتناع.

وهي من المدينة كنقطة دائرية تدركها من جميع نواحيها، ويستوى في الأرض بها قاصيها ودانيها، وما هو إلا نفس خافت وزمر داهق استولى عليها عدو مشترك وطاغية منافق، إن لم تبادروا بجماعتكم عجالاً، وتتداركها ركباً ورجالاً، وتتفروا نحوها خفاً وثقلاً، وما أحضكم على الجهاد بما في كتاب الله فإنكم له أتلى، ولا بما في حديث رسول الله ﷺ فإنكم إلى معرفته أهدى، وكتابي إليكم هذا يحمله الشيخ الفقيه الواعظ يفصلها ويشرحها، ومشمتم على نكتة وهو يبينها ويوضحها، فإنه لما توجه نحوك احتساباً، وتكلف المشقة إليك طالباً ثواباً، عوّلت على بيانه، ووثقت بفصاحة لسانه، والسلام”.

ثم وجه ألفونسو اهتمامه نحو المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية وقرطبة، فقد كان أقوى ملوك الطوائف، وكان منتظراً منه أن يقوم بحماية الأندلس، ولكن المعتمد لم يفعل ودخل في صراعات داخلية مع ملوك الطوائف الآخرين، أضعفت المسلمين، ثم إنه كان يعتمد في تعامله مع نصارى إسبانيا على مهارته الدبلوماسية - كسائر ملوك الطوائف - أو دفع أذاهم بالجزية، ولما أراد ألفونسو ضرب المعتمد فإنه أراد أن يضرب القوة الرئيسية في صفوف المسلمين فإذا استطاع القضاء عليها يسهل عليه السيطرة على بقية ملوك الطوائف،

ولما بدأ في تنفيذ خطته القاضية بالسيطرة على الأندلس من أيدي المسلمين، فقد راعى شروط المعاهدة المعقودة مع المعتمد، فلم يهاجمه مباشرة بل طلب منه امورا مستحيلة التنفيذ، فسأله أن يتخلى له عن معاقل وحصون على الحدود كان الموت عنده أولى من إعطائها^(١) وإمعاناً في الإذلال والتجني طلب ألفونسو من المُعْتَمِد أن يسمح لزوجته القمطجية أن تلد في جامع قرطبة بناءً على نصيحة الأساقفة، لأن الطرف الغربي كان موقع كنيسة قرطبة القديمة، وسأله أن تنزل بالزهاء مدينة الخليفة الناصر، لتكون ولادتها بين طيب نسيم الزهراء وفضيلة موضع الكنيسة المزعوم، وأرسل إليه بعثة من خمسمائة فارس برئاسة اليهودي ابن شالب لأخذ الجزية، وتجراً السفير وقتل أذبه إن كان له أدب، وخرج على العرف الدبلوماسي، وأغلظ في القول للمُعْتَمِد وقال: " لا تعتقدوني بسيطاً لأقبل مثل هذه العملة المزيفة، لا أخذ إلا الذهب الصافي، السنة القادمة ستكون مدناً ". فأخذت المُعْتَمِد النخوة الإسلامية وصلاب اليهودي، وقتل البعثة^(٢).

وقد أثار هذا حفيظة ألفونسو ويكون قد تحصل على ما يريد، وكان ألفونسو متجهاً لحصار قرطبة فلما وصل خبر البعثة أقسم بالهته ليغزون المُعْتَمِد في إشبيلية، وحرك جيوشه نحو غرب الأندلس فدمر كل القرى والتخوم التي في طريقه نحو إشبيلية، وخرج في جيش من طريق آخر يدمر ويخرب ويقتل ويحرق ويسفك ويسبي، حتى وصل إلى جزيرة طريف أقصى جنوب الأندلس على المضيق، وأدخل قوائم فرسه في البحر قائلاً: هذا آخر بلاد الأندلس قد وطنته^(٣).

(١) المقرئ، نوح الطيب، ٦ / ٨٨، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٥ / ٢٨.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١٠ / ١٤٢، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٥ / ٢٥.

(٣) الاستقصا، ١ / ١١٠، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٢١٧.

وَمِنْ هُنَاكَ أُرْسِلُ إِلَى الْأَمِيرِ يُوسُفَ بْنِ تَاشَفِينَ: أَمَّا بَعْدُ.. فَلَا خَفَاءَ عَلَى ذِي عَيْنَيْنِ أَنَّكَ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ بِلِ الْمَلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، كَمَا أَنَا أَمِيرُ الْمَلَةِ النَّصْرَانِيَّةِ، وَلَمْ يَخَفْ عَلَيْكَ مَا عَلَيْهِ رُؤُوسَاؤُكُمْ بِالْأَنْدَلُسِ مِنَ التَّخَاذُلِ وَالتَّوَاكُلِ، وَالإِهْمَالِ لِلرَّعِيَّةِ وَالإِخْلَادِ إِلَى الرَّاحَةِ، وَأَنَا أَسُومُهُمُ الْخُسْفَ، فَأَخْرَبُ الدِّيَارَ وَأَهْتِكُ الْأَسْتَارَ، وَأَقْتُلُ الشَّبَانَ وَأَسْرِ الْوُلْدَانَ، وَلَا عَذْرَ لَكَ فِي التَّخْلَفِ عَنِ نَصْرَتِهِمْ إِنْ أَمَكَّنَكَ مَعْرِفَةُ هَذَا، وَأَنْتُمْ تَعْتَقِدُونَ أَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - فَرَضَ عَلَيَّ وَاحِدًا مِنْكُمْ عَشْرَةَ مَنَاءَ، وَأَنْ قَتَلَكُمْ فِي الْجَنَّةِ وَقَتَلَانَا فِي النَّارِ، وَنَحْنُ نَعْتَقِدُ أَنَّ اللَّهَ أَظْفَرَنَا بِكُمْ وَأَعَانَنَا عَلَيْكُمْ، وَلَا تَقْدِرُونَ دِفَاعًا وَلَا تَسْتَطِيعُونَ امْتِنَاعًا، وَبَلَّغْنَا عَنْكَ وَأَنَّكَ فِي الْإِحْتِفَالِ عَنِ نِيَّةِ الْإِسْتِقْبَالِ فَلَا يَدْرِي أَكَانَ الْجَبِينَ بِكَ أَمْ التَّكْذِيبَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْكَ، فَإِنْ كُنْتَ لَا تَسْتَطِيعُ الْجَوَازَ فَابْعَثْ إِلَى مَا عِنْدَكَ مِنَ الْمَرَائِكِبِ نَجُوزَ إِلَيْكَ، أَنَاظِرُكَ فِي أَحَبِّ الْبِقَاعِ إِلَيْكَ؛ فَإِنْ غَلَبْتَنِي فَتِلْكَ نِعْمَةٌ جَلِبْتَ إِلَيْكَ، وَنِعْمَةٌ شَمَلْتَ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَإِنْ غَلَبْتِكَ كَانَتْ لِي الْيَدُ الْعُلْيَا عَلَيْكَ، وَاسْتَكْمَلْتَ الْإِمَارَةَ، وَاللَّهُ يَتِمُّ الْإِرَادَةَ.

ولما قرئ الكتاب على الأمير يوسف بان له غروره وعدوه والاستهانة بقوة المرابطين، فأعلمه يوسف بجوابه أن قوة المرابطين سيرها ألفونسو في ساحة المعركة لا كما ينقلها إليه أتباعه مزورة بعيدة عن الحقيقة، ثم أمر بالجواب على ظهر الكتاب ذاته: " ما ترى لا ما تسمع إن شاء الله - تعالى - " وأردف:

ولا كتب إلا المشرفية والقنا :: ولا رسل إلا الخميس العرمرم^(١)

وَعَادَ أَلْفُونَسُو إِلَى إِسْبِيلِيَّةِ حَيْثُ التَّقَى بِجَيْشِهِ الْآخِرَ أَمَامَ قَصْرِ الْمُعْتَمِدِ بْنِ عَبَّادٍ بِضَفَةِ النَّهْرِ، وَحَاصِرَ الْمَدِينَةَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَكَتَبَ إِلَى الْمُعْتَمِدِ يَسْأَلُهُ أَنْ يَرْسِلَ إِلَيْهِ مَرْوَحَةَ لَطْرَدِ الذِّبَابِ، وَلَمْ يَتَحَمَّلِ الْمُعْتَمِدُ

(١) الحلل، ص ٢٧، أعمال الأعلام، ص ٢٣٩ - ٢٤٠، تاريخ ابن الكردبوس، ص ٩١، مذكرات الأمير عبد الله بن زيدي، ص ١٠٤، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٢١٨.

هذه الإهانة فردّ: ” قرأت كتابك وفهمت خيلاءك وإعجابك، وسأنظر إليك في مراوح من الجلود اللمطية تروح منك ولا تروح عليك ” (١). ترك ألفونسو إشبيلية وسار نحو سرّ قسطة وحاصرها، كانت شبه ضائعة تنتظر مصيرها المؤلم، وصاحبها ابن هود لا يستطيع الدفاع كثيراً، ثم أخذ بلنسية، وأعطاها القادر بن ذى النون صاحب طليطلة السابق، وهاجم مملكة المرية، ووصل القشتاليون إلى نابار قرب غرناطة، كان الخطر على الأندلس شديداً، وقلة الشجاعة وانهايار الروح المعنوية تثبط العزائم، إذ أن ثمانين قشتالياً هزموا أربعمئة من المرية. وأصبح الناس بين خيارين أحلاهما مر، الخضوع للنصارى أو الهجرة جماعات؟ وكان الخيار الأخير هو المرجح لأن البقاء في شبه الجزيرة من الجنون (٢).

أمام هذا الضياع المفزع الذى وصلت إليه ممالك الأندلس؛ اجتمع علماء وفقهاء وزعماء قرطبة للتشاور فيما يجب عمله لإنقاذ مدينتهم، ووصل رأيهم بعد تبادل الآراء والأفكار إلى استدعاء المرابطين.

ورأى المُعتمِد أن هذا الرأى فيه صواب ونفاذ بصيرة؛ فجدّ في تقوية جيشه ورمم الحصون والقلاع، وقرّر أن يطلب النجدة من إخوانه المُسلمين، وبالرغم من أن هذا الرأى قد وجد معارضة كبيرة من كثير من ملوك الطوائف وكثير من وزراء المعتمد بن عباد وخاصته وحتى من ابنه وولي عهده الرشيد، ولكن المعتمد بن عباد كان ذو عزيمة كبيرة وبصيرة بأحوال الأندلس. ولما عزّم على طلب النصر من المرابطين؛ كتب رسالة إلى يوسف، هذا نصّها: ” بسم

(١) الحميري، الروض المعطار، ص ٨٠، الحلة السيزاء، ص ٣٥١، الاستقصا، ١ / ١١٣، المقري، نفع الطيب، ٦ / ٩١، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٢١٨.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ١٠ / ١٤٢، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٥ / ٢٨، الاستقصا، ١١٢ / ١، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٢١٩.

الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.. إلى حضرة الإمام أمير المسلمين وناصر الدين ومحى دعوة الخليفة، الإمام أبى يعقوب يوسف بن تاشفين، القائم بعظيم أكبارها، الشاكر لأجلها المعظم لما عظم الله من كريم مقارها، اللانذ بحرامها، المنقطع إلى سمو مجدها، المستجير بالله وبطولها مُحَمَّد عباد سلام كريم يخص الحضرة المعظمة السامية ورحمة الله تعالى وبركاته.

كتب المنقطع إلى كريم سلطانها من إشبيلية في غرة جمادى الأولى ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م وإته أيد الله أمير المسلمين ونصر به الدين، فأنا - نحن العرب - في هذه الأندلس قد تلفت قبائلنا، وتفرق جمعنا، وتغيرت أنسابنا بقطع المادة عنا من ضيعتنا؛ فصرنا شعوباً لا قبائل، وأشتاتاً لا قرابة ولا عشائر، فقل نصرنا، وكثر شماتنا، وتولى علينا هذا العدو المجرم اللعين ألفونسو وأناخ علينا بطليطة ووطنها بقدمه، وأسر المسلمين، وأخذ البلاد والقلاع والحصون، ونحن أهل هذه الأندلس ليس لأحد منا طاقة على نصره جاره ولا أخيه، ولو شاءوا لفعلوا إلا أن الهواء والماء منعهم من ذلك، وقد ساءت الأحوال، وانقطعت الآمال، وأنت أيدك الله سيد حمير، ومليكها الأكبر، وأميرها وزعيمها، نزعت بهمتي إليك واستنصرت بالله ثم بك، واستغثت بحرمكم لتجوز بجهد هذا العدو الكافر وتحيون شريعة الإسلام وتدينون على دين مُحَمَّد ﷺ، ولكم عند الله الثواب الكريم على حضرتكم السامية السلام ورحمة الله وبركاته ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم" (١).

وإلى جانب الكتب الرسمية وردت على الأمير يوسف كتب وأرسلت وفود شعبية من الشيوخ والعلماء رسائل تحت الأمير على

(١) الصلابي، دولة المرابطين ص (٧١).

أطلع الأمير يوسف حاشيته وخاصته ووزراءه على المحادثات لاستشارتهم بالأمر وكان المرابطون متشوقين لدخول الأندلس والجهاد ضد النصارى، فأجمعوا على نصرته دينهم وإعزاز كلمة التوحيد، وكان وزير يوسف ومستشاره أندلسي الأصل اسمه عبد الرحمن بن أسبط أو أسباط، فنصحته المستشار بأن يطلب من المُعْتَمِدِ بن عَبَّاد الجزيرة الخضراء لكي تكون آمنة لعبور الجيش، ولحماية خطوط التموين، وقال له: إن الأمر لله تعالى ولكم، وواجب على كل مسلم إغاثة أخيه المسلم والانتصار له. واقتنع الأمير يوسف برأى وزيره في طلب الجزيرة الخضراء ليجعل فيها أُنْقَالَ جيشه وأجناده ويكون الجواز بيده متى شاء، وقال الأمير يوسف لعبد الرحمن: صدقت يا عبد الرحمن، لقد نبهتني على شيء لم يخطر ببالي، اكتب إليه بذلك.

وكتب ابن أسبط إلى المُعْتَمِدِ بن عَبَّاد الكتاب التالي نصّه: " بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا مُحَمَّدٍ وآله وصحبه وسلّم. من أمير المُسْلِمِينَ وناصر الدِّين معين دعوة أمير المؤمنين، إلى الأمير أكرم المؤيد بنصرة الله تعالى المُعْتَمِدِ على الله أبي القاسم مُحَمَّدِ بن عَبَّاد أدام الله كرامته بتقواه، ووفقه لما يرضاه، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد:

فإنه وصل خطابك الكريم، فوقفنا على ما تضمنه من استدعائنا لنصرتك، وما ذكرته من كربتك، وما كان من قلة حماية جيرانك، فنحن يمين لشمالك ومبادرون لنصرتك وحمايتك، وواجب علينا في الشرع، وفي كتاب الله تعالى، وإنه لا يمكننا الجواز إلا أن تُسَلِّمَ لنا الجزيرة الخضراء؛ تكون لنا لكي يكون جوازنا إليك على أيدينا متى شئنا، فإن رأيت ذلك فاشهد على نفسك بذلك، وابعث إلينا بعقودها

ونحن في أثر خطابك إن شاء الله تعالى” (١).

ثم جمع المُعْتَمِدُ القاضى والفقهاء، وكتب عقد هبة الجزيرة الخضراء للأمير يوسف، وتسليمها له بحضورهم، وكان يحكمها يزيد الراضى بن المُعْتَمِدِ، فبعث إليه أمره بإخلائها وتسليمها للمرابطين لتكون رهناً بتصرف الأمير يوسف. وبعد موافقة المُعْتَمِدِ تجهز يوسف لتلبية نداء إخوانه في العقيدة رغباً في الأجر والثوبة من الله بتأدية فريضة الجهاد، وكتب أماناً لأهل الأندلس ألا يتعرض لأحد منهم في بلده وقال: ” أنا أول مُتَدَبِّ لنصرة هذا الدين، لا يتولى الأمر أحد إلا أنا بنفسى ” وأعلن النفير العام في قوات المرابطين، فأقبلت من مراكش، ومن الصحراء وبلاد الزاب، ومن مختلف نواحي المغرب يتوافدون على قيادتهم الربانية، وجهزت السفن لتحمل هذه القوات، وكان أول من نفذ أمر العبور قائد المرابطين النابغ داود ابن عائشة، وتمركز في الجزيرة الخضراء، وتتابعت كتائب المرابطين، وكانت معهم الجمال الكثيرة، وقد أثار وجودها دهشة الأندلسيين، لأنهم لم يكونوا يعرفونها من قبل، وقد أثر وجودها على الخيل فأخذت تجمع لدى رؤيتها.

كانت أنباء عبور المرابطين إلى الأندلس قد وصلت إلى الفونسو وهو محاصر سرقسطة ولما وصله الخبر السعيد ارتاع، ولكنه حاول أن ينتهز هذه الفرصة، وطلب من المستعين بن هود حاكم سرقسطة أن يدفع له مالاً مقابل فك الحصار، معتقداً أن المستعين لا علم له بالعبور، ولكن الخبر السعيد قد عم الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها، وكأنه رحمة نزلت من السماء على المستعين، الذي رفض إعطائه درهما واحدا خشية أن يتقوي بها على قتال المسلمين (٢).

توجه الفونسو إلى بطحاء الزلاقة وخيم على بعد ثلاثة أميال من

(١) الحل، ص ٣٢ - ٣٣.

(٢) روض القرطاس، ص ٩٣، الاستقصا، ١ / ١١١.

الجيش المسلم يفصل بينهما نهر بطليوس يشرب منه المتحاربون^(١). كانت الأحوال تنذر بأن المعركة سوف تكون حاسمة بالنسبة للأندلس، فقد بلغت قوى النصرانية ذروة قوتها، تذكيتها نزعة صليبية تهدف إلى طرد العرب من إسبانيا، في المقابل فإن الحماس الذي بثه المرابطون قد جدد عزائم الأندلسيين وأحيى موات الآمال فيهم.

وقبل بدء المعركة الفاصلة وجرياً على سنة الإسلام في القتال، أرسل يوسف بن تاشفين إلى ألفونسو كتاباً يعرض عليه الدخول في الإسلام أو دفع الجزية أو الحرب، وهذا من مقتضيات الشريعة الإسلامية في قتال أهل الكتاب، ومما جاء في كتاب الأمير: بلغنا يا أذفونش أنك نحوت الاجتماع بنا، وتمنيت أن تكون لك فُلُكٌ تعبر البحر عليها إلينا، فقد جزناه إليك، وجمع الله في هذه العرصة بيننا وبينك، وترى عاقبة ادعائك {وَمَا دَعَتْهُ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} [عافر: ٥٠]^(٢).

ولما قرأ ألفونسو الكتاب زاد غضبه وذهب بعقله وقال: "أبمثل هذه المخاطبة يخاطبني وأنا وأبى نغرم الجزية لأهل ملته منذ ثمانين سنة؟" ^(٣) وقال لرسول الأمير يوسف: "قُلْ للأمير لا تتعب نفسك أنا أصل إليك" ^(٤)، وإنا سنلتقى في ساحة المعركة، ومعنى ذلك أن ألفونسو اختار الحرب^(٥) والحرب خدعة فقد حاول ألفونسو حامى حمى النصرانية في إسبانيا أن يخدع المسلمين ويمكر بهم، فكتب إلى الأمير يوسف في تحديد يوم المعركة فكتب إليه: "إن بعد غد الجمعة لا نحب مقابلتكم فيه لأنه عيدكم، وبعده السبت يوم عيد اليهود، وهم كثير في محلتنا، وبعده الأحد عيدنا، فنحترم هذه الأعياد، ويكون

(١) روض القرطاس، ص ٩٤، ابن الكردبوس، ص ٩٣.

(٢) الحل، ص ٣٥، الروض المعطار، ص ٩٠، الحلة السبراء، ص ٣٥٤، نفع الطيب،

٩٧ / ٦، الاستقصا، ١ / ١١٦ ابن خلكان، وفيات الأعيان (١١٦/٧).

(٣) الحل، ص، ٣٥، الصلابي، دولة المرابطين، ص ٧٨.

(٤) روض القرطاس، ص ٩٤.

(٥) الأندلس في عصر المرابطين، ص (٨٢).

اللقاء يوم الاثنين ” فكان جواب الأمير يوسف: ” اتركوا اللعين وما أحب ” (١).

ولكن المعتمد تنبه لهذه الخدعة وقال للأمير يوسف: ” إنها حيلة منه وخديعة إنما يريد غدرنا فلا تطمئن إليه، وقصده الفتك بنا يوم الجمعة فليكن الناس على استعداد له يوم الجمعة كل النهار ” (٢).

واستعد المسلمون لرصد تحركات النصارى وكان حدس المعتمد صائبًا صحيحًا، ورصدوا تحرك العدو نحوهم.

وانقض الجيش الذي يقوده رودريك بمنتهى العنف على معسكر المسلمين من الأندلسيين فتصدى فرسان المرابطين الذين يقودهم داود ابن عائشة الذين أرسلهم يوسف ابن تاشفين على عجل لدعم الأندلسيين، وصمد المرابطون أمام هجوم النصارى، واضطر النصارى إلى الارتداد إلى خط دفاعهم الثانى وظهرت من داود ابن عائشة وجنوده كفاءة قتالية لم يعرف لها مثيل، واختار الله من المرابطين شهداء، واحتدم الصراع، وزحف ألفونسو ببقية جيشه، وأقرن زحفه بصياح هائل أفرع قلوب الأندلسيين قبل خوضهم المعركة، ولاذوا بالفرار ووجدوا أنفسهم أمام أسوار بطليوس للاحتماء بها، ولم يصمد منهم إلا فارس الأندلسيين وقومه ” المعتمد بن عباد وأهل إشبيلية ” وأبلى بلاءً عظيمًا وعقرت تحته ثلاثة أفراس، وأصيب بجروح بليغة، واستمرت المعركة الرهيبة، وصمد المعتمد مع داود ابن عائشة حتى فلت السيوف، وتكسرت الرماح، وصبر المسلمون في المعركة صبرًا عظيمًا سجل في صفحات المجد والعزة والكرامة في تاريخنا المجيد.

وبدأت قوة المسلمين تضعف وتتقهقر أمام ضربات النصارى

(١) الحل الموشية، ص ٣٦.

(٢) الحلة السيزاء، ص ٣٥٤، الروض المعطار، ص ٩٠، نفح الطيب، ٦ / ٩٨ الاستقصا ١ / ١١٦، أعلام الأعلام، تحقيق العبادي، ص (٢٤٣).

الحاقدة، وأيقن ألفونسو ببلوغ النصر مُعتقداً إن هذه هي قوة المُسلمين المقاتلة التي ظهر الإعياء عليها، وأخذت موقف المدافعة، ولم يستغرق ألفونسو طويلاً في أحلامه حتى وثب جيش من المرابطين إلى ميدان المعركة أرسله الأمير يوسف بقيادة سير بن أبي بكر على رأس الحشم لمساندة القوات الإسلامية، فتقوّت بذلك معنوياتهم في معركة مالت إلى هزيمتهم، وزحف الأمير يوسف بحرسه المرابطي، وقام بعملية التفاف سريعة باغت فيها معسكر العدو من الخلف، ووصل إلى خيامه وأحرقها وأباد حراسها، ولم ينج منهم إلا القليل، وكانت طبول المرابطين تدق بعنف فترتج منها الأرض، ورغاء الجمال يتصاعد إلى السماء فبث الذعر في نفوس الأعداء وهلعت قلوبهم. وذهل ألفونسو عندما رأى بعض حرس معسكره فارين، وأتته الأخبار من داخل المعسكر باستيلاء المرابطين عليه، وأنه خسر حوالي عشرة آلاف قتيل، ووجد ألفونسو نفسه محاصراً من المُسلمين فاضطر للقتال متقهقراً نحو معسكره المحروق، ولكن يوسف لم يترك له الفرصة لالتقاط الأنفاس، فانقضَّ عليه كالسيل، وقاتل ألفونسو عند ذلك قتال المستميت، وكان الأمير يوسف يبث الحماس في نفوس المُسلمين قائلاً: "يا معشر المُسلمين اصبروا لجهاد أعداء الله الكافرين، ومن رُزق منكم الشهادة فله الجنة ومن سلم فقد فاز بالأجر العظيم والغنيمة"، وكان رحمه الله يقاتل في مقدمة الصفوف وهو ابن التاسعة والسبعين، وكان العناية الإلهية كانت تحميه^(١)، وكان فقهاء المُسلمين وصالحوهم يعظون الجنود ويشجعونهم على مصابرة أعداء الدّين، وفي هذا الجو الرهيب من القتال الذي دام بضع ساعات وسقط فيه آلاف القتلى، وغمر الدم ساحة المعركة عندما دفع الأمير حرسه الخاص من السودان إلى

(١) الحلل الموشية، ص ٤٢، روض القرطاس، ص ٩٥، ابن الكردبوس، ص ٩٣،
نفع الطيب، ٦ / ١٠١، الأندلس في عهد المرابطين، ص ٨٥، الصلابي، دولة
المرابطين، ص ١٠٩.

القتال، فترجل منهم أربعة آلاف كانوا مسلحين بدروع اللط وسيوف الهند ونزاريق الزان.

اندفعوا إلى المعركة اندفاع الأسود فحطموا مقاومة النصرانية، وتكسرت شوكتهم، وانقض أسد من أسود المسلمين على ألفونسو وطعنه في فخذ، ولاذ النصارى بالفرار، وتمنى ألفونسو الموت على العيش، ولجأ مع خمسمائة فارس من فرسانه إلى تل قريب ينتظر الظلام لينجو من سيوف المرابطين.

ومنع يوسف جنوده من اللحاق بهم، وكانت مناسبة لألفونسو الذي تابع سيره مع الظلام إلى طليطلة، وصل إليها مغموماً حزينا كسيراً جريحاً بعد أن فقد خيرة رجاله وجنوده وقادة جيشه.

وفقد ألفونسو في الزلافة القسم الأعظم من جيشه، وأمر يوسف بضم رءوس القتلى من النصارى، فعمل المسلمون منها مآذن يؤذنون عليها، واستشهد في تلك المعركة الخالدة جماعة من العلماء والفقهاء، قلما يجود الزمان بمثلهم منهم قاضى مراكش عبد الملك المصمودي، والفقير الناسك أبو العباس بن رميلة القرطبي. وجمع المسلمون الأسلاب والغنائم التي تركها النصارى وراءهم في ساحة المعركة، وآثر الأمير يوسف بها ملوك الأندلس، وقد عرفهم أن هدفه الجهاد في سبيل الله ونصرة الإسلام^(١).

وأرسل المعتمد إلى ابنه الرشيد في إشبيلية يزف إليه البشرى بالنصر، وكان الناس بانتظار الأنباء على أحر من الجمر، وقد حمل الرسالة الحمام الزاجل وهي مقتضبة إذ لا تتعدى السطرين، هذا نصها: "اعلم أنه التقت جموع المسلمين بالطاغية ألفونسو اللعين ففتح الله للمسلمين وهزم على أيديهم المشركين والحمد لله رب

(١) ابن الكردبوس، ص ٩٤، الحلة السراء، ص ٣٥٦، وفيات الأعيان، ٧ / ١١٨، نوح الطيب، ٦ / ١٠٢، الروض المعطار، ص ٩٢ - ٩٥، ملوك الطوائف، ص ٣١٤، الصلابي، دولة المرابطين، ص ١١١.

العالمين، فأعلم بذلك من قبلك إخواننا المُسلمين والسلام ”، وقرئت الرسالة بمسجد إشبيلية فعمها السرور، ثم توالى الكتب تفيض بأخبار النصر منها إنشاء الكاتب ابن عبد الله بن عبد البر النمري وفيه يحدد تاريخ المعركة وسيرها وما أظهره ألفونسو من الغدر والآخرة للصالحين (١).

وفي نشوة النصر عاد الأمير يوسف فجأة إلى المغرب دون أن يجني ثمار نصره، وعلى الأقل استرجاع مدينة طليطلة.

بعد رجوع يوسف بن تاشفين إلى المغرب بدأت قوات النصارى تتجمع حول ألفونسو الذى أربك مُدُن شرق الأندلس، متخذين من حصن لبيط المنيع الواقع على مسيرة يوم من لورقة مركزاً لشنّ الغارات على أراضى المُسلمين.

فعبّر المُعتمِد المجاز إلى المغرب وطلب من يوسف العبور، فاستجاب يوسف لرغبته، وتمّ جواز يوسف إلى الجزيرة الخضراء في ربيع الأول سنة ٤٨١هـ / ١٠٨٨م، ومن هناك كتب الأمير يوسف إلى جميع أمراء الأندلس يدعوهم إلى الجهاد ولكن ظهرت صراعات ملوك الطوائف فيما بينهم ووصلت للأمير يوسف فأيقن أن أمراء الأندلس لا يصلحون للحكم ولا يعتمد عليهم في جهاد، فعرض الأمر على الفقهاء والعلماء فأفتوا له بضم الأندلس للمغرب.

فعبّر الأمير يوسف بقوة ضخمة، عبرت من سبتة إلى الجزيرة الخضراء وسار على رأس جيشه إلى طُليطلة وأرسل فرقا من جيشه نحو مختلف المدن، وسار بنفسه نحو مدينة غرناطة.

واستطاع أن يفتح غرناطة بعد شهرين من حصارها واعتقل أميرها، عبد الله بن بلكين الصنهاجى الذى تحالف مع النصارى من أجل أملاكه، ثم أرسله أسيراً إلى المغرب، واستقرّ في أغمات

(١) الحل، ص ٤٤ - ٤٦.

بالقرب من مراکش^(١).

وبعد دخول الأمير يوسف إلى غرناطة قدم المعتمد بن عباد والمتوكل ابن الأفطس لتنهنته بالنصر، وأرسل المعتمد بن صمادح ابنه كذلك، وكان المعتمد يمني نفسه بامتلاك غرناطة، فاستقبل الأمير يوسف هذا الوفد بفتور مظهرا تغيره عليهم، كما اعتقل ابن المنعصم بن صمادح.

وهنا أخذ الندم المعتمد وأدرك فداحة الخطأ الذي ارتكبه باستدعاء المرابطين، وقال للمتوكل: " والله لا بد له من أن يسقينا من الكأس التي أسقي بها عبد الله بن بلكين " ^(٢) وانصرفا إلى بلادهما ولسان حالهما يقول: انج سعد فقد هلك سعيد.

وحاول المعتمد بن عباد والأفطس أن يقيما حلفا من ملوك الطوائف لمواجهة المرابطين ولكنهم فشلوا في إقامة هذا التحالف، ولعبت الوشاية دورها في توتر العلاقة بين الأمير يوسف وبين المعتمد ابن عباد، فدعا الأمير يوسف المعتمد للقاء والتشاور فامتنع المعتمد، فطلب الأمير يوسف منه أن يطبق أحكام الشرع، وألا يفرض الضرائب المخالفة لتعاليم الإسلام، وأن يرابط في الثغور للذود عن حياض المسلمين، فامتنع المعتمد عن الإجابة، فكان ذلك بمثابة إعلان الحرب^(٣).

وسقطت قرطبة في يد المرابطين في صفر ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م بعد مقاومة عنيفة من ابني المعتمد اللذين قتلوا " المأمون ويزيد الراضي " ووصل المرابطون إلى ضواحي طليطلة مهددين ملوك النصارى، واستولوا على قلعة رباح التي فتحت الطريق أمامهم إلى قشتالة،

(١) مذكرات الأمير عبد الله، ص ١٥٠ - ١٦٠، الكامل، ١٠ / ١٥٥، نفح الطيب، ١٠٧ / ٦، الاستقصا، ١ / ١٢٠.

(٢) الحل، ص ٥١ - ٥٣.

(٣) الحل، ص ٥٢، مذكرات الأمير عبد الله، ص ١٦٩.

واشتدَّ الخوف بالمُعتمِد بن عَبَّاد الذي أرسل إلى أَلْفونسو يستتجده ضد المرابطين، وعقد الخطر المشترك أو اصر الصداقة بينهم (١).

وسقطت قرمونة بعد حصار قصير في ربيع الأول ٤٨٤/١٠٩١م، وأصبح أمير إشبيلية في خطر عظيم، وجاءته إمدادات النصارى التي أرسلها أَلْفونسو بقيادة الكونت جومز، وعدتها أربعون ألف رجل مرتجل، وعشرون ألف فارس، ووصلت إلى مقربة من قرطبة وتصدَّى لهم القائد الشجاع إبراهيم بن إسحاق في جند الشجعان، ونشبت بين الفريقين معركة حاسمة، أصاب فيها المرابطون بالرغم من خسائرهم نصرًا كبيرًا مبيئًا، وغدت إشبيلية بعد فرار النصارى تحت رحمة المرابطين، وكانوا قد ضربوا حولها الحصار، وكان سير بن أبى بكر يقود الجيش المحاصر، وفتحت إشبيلية عنوة في رجب ٤٨٤هـ/١٠٩١م، واستسلم المعتمد بن عباد للمرابطين الذين ألقوا القبض عليه هو وأهله، ونهب مقره مثلما حدث في المدينة (٢).

ولكن المعارك لم تنته بسقوط العاصمة إشبيلية واستمرت المقاومة بقيادة ولدي المعتمد في مارتلة، والراضي في رندة، فقد أنفا الذل وأبيا وضع أيديهما بغير يد أبيهما، وكان وضع الراضي جيدًا فرندة محصنة ولم يجرؤ المرابطون على التقدم نحوها، أمام هذا الوضع عمد القائد سير إلى مضايقة المعتمد لإجباره على مخاطبة ولديه بالاستسلام وإلا كان الموت نصيب الأسرة، حتى أن أمهما كتبت إليهما مستعطفة راجية " وإن دم الكل مسترهن باستسلامهما " ولهما العهود والمواثيق بعدم التعرض لهما بأذى، وقد حرك هذا النداء عواطف الرحمة وحقوق الأبوة في نفسيهما فاستسلما، ولكن

(١) مذكرات الأمير عبد الله بن زيري، ص ١٦٩.

(٢) مذكرات الأمير عبد الله بن زيري، ص ١٧، المعجب، ص ١٤١، روض القرطاس،

ص ١٠١، وفيات الأعيان، ٣٠ / ٥.

القواد المرابطين تنكروا للعهود التي أعطوها للمعتمد بشأن ولديه، فقد قبض القائد جرور على الراضي وقتله غيلة وأحضر جسده، أما المعتمد فقد استجاب للنداء مباشرة فكان قدره أقل قساوة، فأبقي عليه حيا بعد مصادرة جميع أملاكه^(١).

وقد حرك هذا العمل مشاعر المعتمد فرثا ابنيه - اللذين قتلا بين يديه صبورا - بقصائد رقيقة حزينة:

يقولون صبراً! لا سبيل إلى الصبر :: سأبكي، وأبكي ما تطاول من عمري
أفتح لقد فتحت لي باب رحمة، :: كما بيزيد، الله قد زاد في أجري
هوى بكما المقدار عني، ولم أمت :: فأدعى وقياً، قد نكصت إلى الغدر
ولو عدتما لاخرتما العود في الثرى :: إذا أنتما أبصرتما في الأسر
أبا خالد أورثتني البث خالداً :: أبا نصر مذ ودعت ودعني نصري
وقبلكما قد أودع القلب حسرةً :: تجدد طول الدهر ثكل أبي عمرو^(٢)

قال أيضاً فيهما يندبهما بما يوحد الضلوع، ويسكب الدموع:

يا عين عيني أقوى منك همتانا :: أبكي لحزن وما حملت أحزانا
ونار برقك تجبو إثر وقدما :: ونار قلبي تلفى الدهر بركانا
نار وماء صميم القلب أصلهما :: متى حوى القلب نيراناً وطوفانا
ضدان ألف صرف الدهر بينهما :: لقد تلون في الدهر ألوانا

(١) المعجب، ص ١٤٣، مذكرات الأمير عبد الله بن زيري، ص ١٧١، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٢٧٨ - ٢٧٩.

(٢) المعجب، ص ٤٣. وعني ابنه سراج الدولة أبا عمرو عباد بن محمد قتيل بن عكاشة بقرطبة. وأبو خالد هو ابنه يزيد الملقب بالراضي، وهو الذي قتله قرور اللتوني غدرًا برندة. وأبو نصر هو ابنه الفتح الملقب بالمأمون، وقتل أيضاً بقرطبة في آخر دولتهم. وإخوتهم أبو الحسين عبيد الله الملقب بالرشيد، حمل مع أبيه إلى العدو، وأبو بكر عبد الله الملقب بالمعتد، وأبو سليمان الربيع تاج الدولة، وأبو هاشم المعلى زين الدولة، وكلهم لجاريتته هذه الحظية عنده الغالبة عليه "اعتماد"؛ وهي أم الربيع، وتعرف بالميدة الكبرى، وتلقب بالرميكية نسبة لمولاهما رميك ابن حجاج، ومنه ابتاعها المعتمد في أيام أبيه المعتضد.

بكيت فتحاً فإذ ناديت سلوته :: لقد تلون في الدهر ألوانا
يا فلذتي كبدي يأبي تقطعها :: عن وجدها بكما ما عشت سلوانا
لقد هوى بكما نجمان ما رميا :: إلا من العلو بالأحاط كيوانا
مخفف عن فؤادي أن ثكلكما :: مثقل لي يوم الحشر ميزانا
يا فتح قد فطحت تلك الشهادة لي :: باب الطماعة في لقياك جدلانا
ويا يزيد لقد زاد الرجا بكما :: أن يشفع الله بالإحسان إحسانا
كما شفعت أخاك الفتح تتبعه :: لقاكما الله غفراناً ورضوانا
مني السلام ومن أم مفعجة :: عليكما أبداً مثني ووحداناً
أبكي وتبكي وبكي غيرنا أسفاً :: لدى التذكر نسواناً وولدانا^(١)

وكانت خاتمة المُعْتَمِدِ بن عَبَّاد مأساة حزينة، وكان قتل أبنائه لم يكف، فكلبه المرابطون بالحديد وحشروه مع أهل بيته على ظهر سفينة، وخرج الناس على ضفتي النهر لوداع ملكهم الأسير وهم يبكون، ونقلتهم السفينة إلى المغرب، فأقاموا في مراكش، ثم أمر يوسف بنقلهم إلى أغمات حيث ألقى بهم في السجن، وسيم المعتمد بأشد أنواع التعذيب النفسي والجسدي وهو يرقد في غياهب سجنه، وقد أمر يوسف بذلك بسبب ثورة أحد أبنائه في الأندلس.

وفي طريقه إلى منفاه تألم المُعْتَمِدِ من قيده وضيقة وثقله فقال:

تبدلت من ظل عزّ البنود :: بذل الحديد وثقل القيود
وكان حديدي سناناً ذليلاً :: وعضباً رقيقاً صقيل الحديد
وقد صار ذلك وذا أدهما :: يعض بساقي عض الأسود

لقد كانت معاملة الأمير يوسف للمعتمد وأسرته قاسية جدا لم يسلكها أحد قبله ولا بعده، فلم يجر عليهم من الطعام إلا ما يقيم أودهم، مما دفع بنات المعتمد الأميرات إلى خدمة الناس، فكن يغزلن الصوف لكسب بعض دريهمات ينفقنها على الأهل. وحز ذلك في

(١) الثنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ٣ / ٧١.

نفس المعتمد وتآلم من حالته الحاضرة فكان عزاءه الوحيد الشعر،
وبقي المعتمد سجيناً في أغمات إلى أن وافته المنية فيها في ١١
شوال ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م (١).

ولعل معاملة يوسف القاسية للمعتمد تعود إلى تحالف هذا الأخير
واستدعائه له بعد أن مناه بالبلاد، وقد أدت حملة ألفونسو ضد
المرابطين في حصن المدور إلى استشهاد جماعة منهم، إضافة إلى
ما فقده المرابطون من عناصر بشرية في فتح إشبيلية كان يمكن
استخدامها في الحرب مع الأسيبان، بدل استنزافها داخلياً مما أوغر
صدر الأمير يوسف ضد المعتمد، وعامله هذه المعاملة القاسية، التي
أضحت نقطة سوداء في تاريخ الأمير يوسف (٢).
من شعر المعتمد بن عباد:

دخل عليه ولده أبو هاشم والقيود قد عضت بساقيه فخطب قيده
فقال:

قيدي، أما تعلمني مُسلماً :: أبيت أن تشفق أو ترحماً
دمى شراب، واللحم قد :: أكلته ولا تمشم الأعظماً
يُصرن فيك أبو هاشم :: فينثني، والقلب قد هُشما
ارحم أحياتٍ له مثله :: جرعتهن السُّم والعَلقما
وقال ذات مرة بعد أن أحيط به في إحدى معاركه:

لما تماسكت الدموع :: وتنهته القلبُ الصديق
قالوا الخضوعُ سياسة :: فليدُ منك لهم خُضوع
وألذ من طعام الخُضوع :: على فمى السُّم النقيع
أتسلبُ عني الدُّنا :: ملاكي وتسلم القلبُ الضُّلوع

(١) المعجب، ص ١٤٥، روض القرطاس، ص ١٠١، وفيات الأعيان، ٧ / ١٢٣،

١ / ١٢٠، الكامل، ١٠ / ١٩٠، مذكرات الأمير عبد الله، ص ١٧١، سعدون نصر

الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٢٧٩ - ٢٨٠.

(٢) سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٢٨٠.

قد رُمْتُ يوم نزالهم :: أن لا تحصّني الدروع
وبرزت ليس سوى القمي :: ص عن الحشى شيء دُفوع
أجلى تأخر، لم يكن :: بهـواى ذلى والخضوع
ما سرتُ قط إلى القتال :: وكان في أملى الرجوع
شيم الأولى أنا منهم :: والأصل تتبعه الفروع^(١)

لقد كانت محنة المُعتمِد بن عبّاد عظيمة، وتعاطف معه كثير من
المؤرخين والأدباء والشعراء، واتهموا يوسف بن تاشفين بالقسوة
والغلظة وأنه صحرأوى بدوى نزع الرحمة من قلبه، واستدلوا أنه
ذو نزعة توسعية دنيوية، ولذلك أنزل العقوبة المؤلمة على من
استطاع من ملوك الأندلس وتخلّص منهم.

* * *

(١) الصلابي، دولة المرابطين، ص ١٤٠.

سيف الدين قطز

من مشاهير أعلام المسلمين

سيف الدين قطز

كان مقتل تورانشاه آخر الملوك الأيوبيين في مصر فاتحًا لشهية كل طامع في سلطنة البلاد المصرية بعد قطع دابر آخر الملوك الأيوبيين، وطفت على سطح الأحداث السياسية في مصر أطماع كثيرة تتنازع فيما بينها حول السلطة، فقد كان هناك الملوك الأيوبيون بالشام والذين لم يقبلوا بأن تؤول البلاد المصرية لغيرهم وطالبوا بحقهم الشرعي في حكمها، وكان من الصعب عليهم أن يقبلوا استئثار ممالك آبائهم بمصر بعد مقتل سلطانها الشرعي وكان على رأس هذا الحزب الناصر يوسف ابن العزيز محمد بن الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي، وكان قد تولى مملكة حلب بعد وفاة أبيه سنة ١٢٣٧ م / ٦٣٤ هـ، والذي أخذ دمشق وأخذ يطالب بمصر ويستعد لغزوها (١).

كما أنه كان يوجد عدد من كبار المماليك الترك أو طائفة البحرية، كان كل منهم يطمع في حكم مصر ويرى أنه الأفضل لهذا المنصب، وهم: بيبرس قائد الجيش، وفارس الدين أقطاي مقدم المماليك (٢)، وعز الدين أيبك الجاشنكير (٣)، هذا إضافة إلى شجرة الدر الزوجة السابقة للصلاح نجم الدين أيوب، وكل واحد من هؤلاء كانت له أطماعه وأطماعه التي لم يقدر على البوح بها خوفًا من بأس الآخرين.

(١) المقرئزي، الخط، ٣/٣٨٦.

(٢) الذي يشرف على تعليم المماليك.

(٣) الذي يتصدى لتذوق الطعام والشراب قبل السلطان.

وعلى ما يبدو أن أمراء المماليك قد قرروا حل هذه العقدة التي نجمت عن شغور العرش المصري فجأة بالحل الوسط، فاتفقوا على إقامة شجر الدر أم خليل بن الصالح نجم الدين أيوب في السلطنة وحلفوا لها، حرصاً منهم على عدم الظهور بمظهر المغتصب للسلطة لما كان لشجرة الدر بعض الشرعية كونها كانت زوجة السلطان الصالح نجم الدين أيوب واعتاد المصريون أن يروها إلى جانبه، ومبالغة منهم في احترام الأسرة المالكة الذاهبة، وحرصاً على عدم الظهور بمظهر الخارج عليها. ثم عرضوا الأتابكية على عدد من الأمراء، ثم وقع الاختيار على أيك التركماني أحد أمراء البحرية الصالحية لمنصب الأتابكية^(١).

أخذت السلطنة " شجرة الدر " تتقرب إلى الخاصة والعامة من أهل الحكم والرعية، بيد أن الرأي العام المصري، بترائه السياسي والاجتماعي الذي تشكل في إطار الحضارة العربية الإسلامية، صدمته حقيقة أن امرأة تجلس على عرش البلاد وتوجه شؤون الحكم علناً بصورة رسمية وهو الأمر الذي يناقض اتجاهات الثقافة السائدة من ناحية والنظرية الإسلامية من ناحية أخرى، وعبر المصريون عن غضبهم من خلال المظاهرات والاضطرابات التي استشرت في جميع أنحاء العاصمة مما اضطرت السلطات الي اغلاق بوابات القاهرة منعاً لامتداد مشاعر السخط والغضب الي المناطق الريفية^(٢). وكان من الطبيعي أن يعارض المتعلمون والمتفقون الذين كانت ثقافتهم قد تكونت داخل الإطار المعرفي للحضارة العربية الإسلامية، اعتلاء شجرة الدر عرش البلاد في مصر. وألقيت الخطب في المجالس والمحافل ومن فوق المنابر في المساجد، حتى إن الشيخ

(١) أبو شامة، الذيل على الزوضتين، ص ١٩٦، العبادي، قيام دولة المماليك، ص ١١٨.
(٢) عبد الله بن أيك، كنز الدرر، القسم الأول من الجزء الثاني، ص ١٢، العبادي، قيام دولة المماليك، ص ١٢٢.

العز بن عبد السلام وهو أكبر زعيم ديني في ذلك الوقت كتب كتاباً حول المصائب والكوارث التي وما قد يبتلّي به المسلمون بولاية امرأة^(١).

وكانت الضربة القاصمة التي تلقتها ولاية شجرة الدر هي رفض الخليفة العباسي المستعصم بالله المساندة الشرعية لها، ورد على طلب التفويض الذي وصله منها رداً يحمل من السخرية والحسم ما أنهى حكم السلطنة شجرة الدر بسرعة، إذ جاء في رد الخليفة "... إذا كانت الرجال قد عدت عندكم أعلمونا حتى نسير اليكم رجالاً..."^(٢).

ولما وصل خطاب المستعصم إلى القاهرة اقتنع المماليك بخطأ تصرفهم وأدركوا أنهم لا يستطيعون السباحة ضد التيار الجارف الذي لا بد وأن يغرقهم وقالوا فيما بينهم: "لا يمكننا حفظ البلاد والملك

(١) السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ص ٣٤. والشيخ عز الدين بن عبد السلام الشافعي. الإمام الحبر شيخ الإسلام سلطان العلماء عز الدين السلمي القاهري الشافعي. صاحب الشهرة الحسنة، والمؤلفات المتقنة كالقواعد ومجاز القرآن، والفتاوى المصرية والموصلية، ولد سنة ٥٧٧ هـ ودرس بدمشق على أئمة عصره من أمثال ابن عساکر، وولي الخطابة والإمامة بالجامع الأموي بدمشق، وتلمذ له أبو شامة، وظل بدمشق إلى أن استعان صاحبها الملك الصالح إسماعيل بالفرنج، فأنكر عليه الشيخ العز ابن عبد السلام هذا الفعل وعندما أنكر الشيخ أبو محمد العز بن عبد السلام على ملك دمشق ما عزم عليه من الصلح مع الصليبيين، أخذ وسجن، ثم حمله الملك معه عندما ذهب لتوقيع هذا الصلح، ووضع في خيمة انفرادية، وكأنه أراد أن يدل على (حسن النوايا) فقال للمفاوضين: هذا الشيخ أنكر عليّ الصلح معكم فكان جوابهم: لو عندنا مثل هذا الشيخ لغسلنا قدميه وشرينا غسالتهما. وتوجه إلى مصر سنة ٦٣٩ هـ فلقاه سلطانها الملك الصالح أيوب وولاه خطابة جامع عمرو بن العاص. ولما بنى الصالح أيوب مدرسته بين القصرين بالقاهرة فوض إليه تدريس المذهب الشافعي بها، وظل متمتعاً بالمنزلة الرفيعة حتى وفاته بمصر سنة ٦٦٠ هـ. السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ٨٠/٥ - ١٠٧، السيوطي، حسن المحاضرة، ص ٣٤، العبادي، قيام دولة المماليك، ص ١٢٢.

(٢) المقرئزي، السلوك، ٣٦٨/١ - ٣٦٩.

لامرأة، ولا بد من إقامة رجل في المملكة تجتمع عليه الكلمة” (١). فأثاروا على السلطانة شجرة الدر أن تتزوج أحد أمراء المماليك الصالحة وتتنازل له عن العرش ووقع الاختيار على الأتابك أيبك التركماني، فقبلت ذلك وخلعت نفسها من السلطنة في يوليو سنة ١٢٥٠ م بعد أن حكمت ثمانين يوماً (٢).

وتولى عرش مصر السلطان أيبك التركماني وتلقب باللقب السلطاني ” الملك المعز “. ولم يكن أيبك في الواقع أكبر أمراء المماليك سناً، أو أقدمهم خدمة، أو أقواهم مكانة ونفوذاً، إذ كان يوجد من هم أكبر وأقدم منه مثل فارس الدين أقطاي والظاهر بيبرس. وهذه الحالة الاستثنائية في نظام التدرج المملوكي جعلت بعض المؤرخين مثل أبي المحاسن في كتابه ” النجوم الزاهرة ”، يتهم أيبك بضعف النفوذ والشوكة، وأن الأمراء لم ينتخبوه إلا لكي يتمكنوا من عزله متى شاؤوا (٣). كذلك يذهب المستشرق بلوشيه الي أن أيبك ظل يحكم - رغم اعتزال شجرة الدر - بصفة زوج الملكة مع أنه صار سلطاناً يحكم عن نفسه (٤). غير أن الحوادث دلت على أن أيبك رجل ممتاز بصفات السياسة والحزم والشجاعة، ولم يكن ضعيف الشخصية كما يصوره بعض المؤرخين. ويبدو أن أبا المحاسن نفسه قد شعر بالخطأ الذي وقع فيه حينما وصف أيبك بالضعف في كتابه النجوم الزاهرة، إذ إنه عاد واستدرك ذلك في كتابه الآخر ” المنهل الصافي ” فمدح أيبك فيه ووصفه بالديانة والصيانة والعقل والسياسة، وأنه أنقذ دولة المماليك من خطر محقق (٥).

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ٣٧٦/٢.

(٢) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ٣/٧، ١٤.

(٣) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ٤/٧.

(٤) العبادي، قيام دولة المماليك، ص ١٢٤.

(٥) أبو المحاسن، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ٢/١، العبادي، قيام دولة

المماليك، ص ١٢٤.

وعلى ما يبدو أن سلطنة أيبك التركماني لم تكن محل اتفاق جميع الأطراف؛ إذ إنه بمجرد توليه مهام منصبه بدأت المعارضة الشديدة لتوليه المنصب تطفو على سطح الأحداث، وبدا بريق المنصب يسيل له لعاب الكثير من طلابه.

وكان من أشد الناس معارضة لتولية السلطان أيبك الحزب الأيوبي المتمثل في الأمراء الأيوبيين في الشام وعلي رأسهم الملك الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق، وطمع في المنصب لنفسه ورأى في أيبك الشخص المغتصب لعرش آبائه، وحاول بشتى الطرق الوقوف في وجه أيبك وانتزاع مصر منه، فأخذ يحشد البيت الأيوبي لمواجهة، ويستعد لمنازلته حربياً.

ولم يكن الأيوبيون وحدهم الذين نقموا على السلطان أيبك بل كان الأعراب أشد سخطاً عليه؛ إذ تجمعت لديهم عدد من الأسباب التي جعلتهم يقومون بحركة تمرد وثورة كبيرة أقلقّت مضجع أيبك وكادت تؤدي بملكه.

والظاهر أن حركة الاستياء والتذمر لم تقتصر على العناصر العربية فقط بل صارت حركة شعبية عامة بدليل قول أبي المحاسن: "إن أهل مصر لم يرضوا بسلطان مسه الرق، وظلوا إلي أن مات السلطان أيبك وهم يسمعون ما يكره حتى في وجهه إذا ركب وممر في الطرقات، ويقولون: لا نريد إلا سلطاناً رئيساً مولوداً على الفطرة"^(١).

وعلى ما يبدو أن زعماء المماليك من زملاء أيبك التركماني قد ساءهم كثيراً توليه الحكم في مصر، وأخذوا يدبرون المكائد للخلاص منه قبل أن تدور عليهم دائرته.

ولذلك سعى أيبك حثيثاً للخلاص من منافسيه أمراء المماليك

(١) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ١٣/٧، العبادي، قيام دولة المماليك، ص ١٣١.

وعلى رأسهم أقطاي، ودبر مكيدة لقتله، وفي يوم الأربعاء الثالث من شعبان سنة ٦٥٣ هـ / ١٢٥٤ م، طلب أيبك الي أقطاي الحضور إلى قلعة الجبل لاستشارته في أمر من الأمور، وكان قد اتفق مع بعض مماليكه المعزية على تفاصيل مؤامرة الاغتيال. وركب أقطاي إلى القلعة في عدة من مماليكه، فما كاد يدخل من باب القلعة المؤدي إلى قاعة العواميد أو القاعة الكبرى، حتى أغلق بعده ومنع مماليكه من اللحاق به، ثم انقض عليه المتآمرون ومنهم الأمير قطز المعزي وقتلوه بسيوفهم، وأشيع خبر مقتله في القاهرة الكبرى، فهرع إلى إنقاذه سبعمائة من خشداشيته ومنهم أمير بيبرس البندقداري، والأمير قلاوون الألفي، وفي ظنهم أنه لم يقتل بعد وإنما قبض عليه، فلم يشعروا إلا ورأس أقطاي قد رمي بها إليهم من سور القلعة^(١).

ثم كانت الخطوة التي جرت على أيبك عداوة زوجته شجرة الدر وأودت في نهاية الأمر بحياته، فقد عزم على الزواج من غيرها، فأرسل سنة ١٢٥٦ م إلى بدر الدين لؤلؤ الأتابكي صاحب الموصل يطلب إليه حلفا زواجيا^(٢).

شروع أيبك في هذه الزيجة جر عليه عداوة زوجته شجرة الدر حيث تلاققت عندها خيوط العداوة والمؤامرة، وبدأت تعد العدة للخلاص من أيبك، وبرغم شعوره بما يبببت له بليل وبالرغم من أن كلا الزوجين تسابقا في الخلاص من الآخر إلا أن شجرة الدر كانت أسرع في تنفيذ خطتها والخلاص من أيبك وتمكن غلمانها بقتل أيبك في الحمام في إبريل ١٢٥٧ م / ٦٥٥ هـ^(٣).

ولم يتأخر كثيرا رد فعل المماليك المعزية، فبمجرد وصول نبأ

(١) المقرئزي، السلوك، ٣٩٠/١، ابن إياس، بدائع الزهور، ٩١/١، العبادي، قيام دولة المماليك، ص ١٣٤.

(٢) المقرئزي، السلوك، ٤٠١/١.

(٣) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ٣٧٥/١، ابن إياس، بدائع الزهور، ٩١/١ - ٩٢، المقرئزي، السلوك، ٤٠٣/١.

مقتل أبيك إليهم هرعوا الي القلعة وقبضوا على الخدم والحريم وعذبوهم حتى اعترفوا بحقيقة ما حدث، فحاولوا الفتك بشجرة الدر انتقاما وأخذا بثأر سيدهم أبيك، ولكن المماليك البحرية حالوا بينهم وبين ما يشتهون، ولكن رغبة المماليك المعزية في الانتقام من شجرة الدر كانت أكبر من تقف أمامها المماليك البحرية، وفي نهاية الأمر وصلت أيديهم إلى شجرة الدر حيث دفعوها إلى امرأة أبيك^(١) حيث نكلت بها وقتلتها شر قتلة حيث دفعنها الي الجواري فضربوها بالقباقيب الي أن ماتت، فألقوها من سور القلعة الي الخندق، وليس عليها سوى سروال وقميص، فبقيت في الخندق أياماً، وأخذ بعض أراذل العامة سراويلها، وتركت ملقاة إلى أن أنتتت ثم حملت في قفة ودفنت بتربتها قرب المشهد النفيسي^(٢).

وبعد مقتل أبيك وشجرة الدر تعصبت فرقة المعزية لابن سيدهم (أبيك) المدعو نور الدين على وأقاموه في ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م سلطانا على البلاد ولقبوه بالملك المنصور، وهو الذي لم يكن عمره يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، وأقاموا المملوك سيف الدين قطز وصيا عليه ونائباً السلطنة^(٣).

وبتولي هذا الطفل الصغير مقاليد السلطنة، تكون الفرصة قد سنحت لبزوغ نجم سيف الدين قطز حيث سيكون له دور مهم في التاريخ. تقول المصادر التاريخية أن قطز^(٤) كان مملوكاً في دمشق ضمن

(١) كانت هذه المرأة تحمل حقدا وكراهية شديدة لشجرة الدر التي كانت قد منعت زوجها (أبيك) من زيارتها وأرغمته على طلاقها ولذلك ظلت تضغط على المماليك المعزية وتستعطفهم تستصرهم حتى مكنوها من شجرة الدر. أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ٣٨٨/١.

(٢) المقرئزي، السلوك، ١ / ٤٠٤.

(٣) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ٤٤/٧، المقرئزي، السلوك، ٣٠٦/١.

(٤) المظفر سيف الدين قطز المعزي واسمه الحقيقي محمود بن ممدود، وأمه أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه، وأبوه وابن عمه، أسرا عند غلبة التتار، فبيع بدمشق، ثم (انتقل بالبيع إلى) مصر، كان من أكبر مماليك المعز أبيك التركماني، وكان

ماليك ابن الزعيم، والتحق بخدمة المماليك في مصر، وترقى في الخدمة حتى صار من أكبر مماليك المعز أيبك التركماني، ولعل أول ظهور لقطز على صفحات التاريخ ما ذكرته المصادر التاريخية من اشتراكه في قتل فارس الدين أقطاي بناء على طلب من أستاذه المعز أيبك التركماني، الذي كان قد جهز هذه المؤامرة للخلاص من أقطاي ثم بدأ نجمه يبرز مع تصاعد الأحداث داخل الدولة المملوكية الوليدة.

كانت تولية المعز أيبك السلطنة في مصر هي البداية الحقيقية

بطلاً شجاعاً مقداماً حازماً حسن التدبير يرجع إلى دين وإسلام وخير، وله اليد البيضاء في جهاد التتار.

حكى شمس الدين الجزري في تاريخه عن أبيه قال: كان قطز في رق ابن الزعيم بدمشق في القصاعين، وحدث أن ضربه أستاذه فبكى قطز بكاءً ولم يأكل يومه شيئاً، ثم ركب أستاذه وأمر الفراش - أحد أتباعه - أن يترضاه ويطعمه، قال الحاج على الفراش: جنته فقلت له: ما هذا البكاء؟ من ضربه؟ فقال: إنما بكاني من لعنته أبي وجدي وهما خير منه، فقلت: ومن أبوك؟ واحد كافر، فقال: والله ما أنا إلا مسلم ابن مسلم، أنا محمود بن مودود ابن أخت خوارزم شاه، من أولاد الملوك؛ فترضيتاه. ولما تملك أحسن إلى الفراش وأعطاه خمسمائة دينار وعمل له راتباً.

وحكى الجزري أيضاً في تاريخه قال: حدثني أبو بكر بن الدريهم الإسعدي والزكي إبراهيم الجبيلي أستاذ الفارس أقطاي قال: كنا عند قطز لما تسلطن أستاذه المعز أيبك، وعنده منجم مغربي، فصرف أكثر مماليكه، فأردنا القيام فأمرنا بالعودة، ثم أمر المنجم فضرب الزمل وقال: اضرب لمن يملك بعد أستاذي ومن يكسر التتار؛ فضرب وبقي زماناً يحسب وقال: يا خوند يطلع معي خمس حروف بلا نقط، فقال: لم لا تقول محمود بن مودود؟ فقال: يا خوند لا يقع إلى هذا الاسم، فقال: "أنا" هو، وأنا أكرهم وأخذ بثأر خالي خوارزم شاه، فقلنا: يا خوند إن شاء الله تعالى، فقال: اكنموا هذا، وأعطى المنجم ثلاثمائة درهم. وكان مدير دولة ابن أستاذه المنصور على بن المعز أيبك، فلما دهم التتار الشام رأى أن الوقت يحتاج إلى سلطان مهيب، فعزل الصبي وتسلطن، وتم له ذلك في أواخر سنة سبع وخمسين، فلم يبلغ ريقه ولا تنهأ بالسلطنة حتى امتلأ الشام تنانراً، فتنجز للجهاد وأخذ أهبة الغزو، والتف إليه عسكر الشام وبايعوه، فسار بالجيوش في أوائل رمضان وعمل المصاف مع التتار على عين جالوت، وعليهم كتبغا، فنصره الله عليهم وقتل مقدمهم. وكان قطز شاباً أشقر كبير اللحية. المؤلف: محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، تحقيق، إحسان عباس، ط1، دار صادر - بيروت، (ج 1 / ص ١٥٣)، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ٨٥/٧ - ٨٦.

لظهور قطز على مسرح الأحداث، فيبدو أن أبيك قد اعتمد عليه كثيراً ووثق به لدرجة اسناد المهام الجسام إليه بدليل اشتراكه في مؤامرة اغتيال أقطاي ثم توليته نائباً عنه في السلطنة.

وعلى ما يبدو أن النهاية المأساوية المفاجئة والسريعة لكل من شجرة الدر والمعز أبيك قد وضعت قطز في واجهة الأحداث وأعطته الفرصة الكاملة لتولي زمام الأمور وتوجيهها بالشكل الذي يضمن له السلطنة ويفرض عليه قيادة المعركة - معركة الوجود - ضد التتار.

فبعد مقتل أبيك صمم المماليك المعزية وعلي رأسهم سيف الدين قطز على أن يقيموا العرش - الذي بات شاغراً بمقتل أبيك - وملكوا صبياً في الخامسة عشرة من عمره هو " نور الدين علي " ابن سيدهم أبيك، وتم ذلك في ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م ولقبوه بالملك المنصور علي، وقد رفض المماليك البحرية هذا الاختيار، وأعلنوا معارضتهم إلا أن قطز كان له الدور البارز في تثبيت أركان ملك هذا الصبي الصغير - إلى حين - ووقف في وجه محاولات المماليك البحرية وملوك الأيوبيين^(١).

وبينما كان هو لاكو يجتاح أقاليم العالم الإسلامي الشرقية، كان نجم سيف الدين قطز يزداد سطوعاً وتزداد قامته السياسية طولاً، فقد كانت مصر آنذاك تحت حكم الملك المنصور علي بن أبيك التركماني، وكان صغير السن ضعيف الشخصية، وكان قطز نائبه هو المشار إليه بديار مصر وله مكانه كبري وبلغ شأواً عظيماً، وصار الشخصية البارزة في البلاد، نتيجة لصغر سن السلطان الملك المنصور علي من ناحية، ولكثرة أنصار وأتباع قطز من ناحية أخرى.

وفي تلك الأثناء حدثت مأساة اجتياح المغول للعراق وسقوط بغداد في أيديهم سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م، ثم الإنذار المرسل من

(١) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ٤٤/٧، المقرئ، السلوك، ٣٠٦/١.

هولاكو الي الملك الناصر صلاح يوسف، وأخبار عبور التتار نهر الفرات لغزو بلاد الشام، كما أن الملك الناصر يوسف قد أفاق من غفوته وأرسل المؤرخ والفقيه المعروف كمال الدين بن العديم يستنجد بمصر وبعاكرها (١).

فلما قدم ابن العديم الي القاهرة عقد مجلس بالقلعة حضرة السلطان الصبي الملك المنصور نور الدين علي، وحضره كبار أهل الرأي من الفقهاء والقضاة مثل قاضي القضاة بدر الدين حسن السنجاري (٢)، والشيخ عز الدين بن عبد السلام (٣)، وكان سيف الدين قطز من بين الحاضرين، وسألها الحاضرون عن أخذ الأموال من الناس لإنفاقها على الجنود فقال ابن عبد السلام: إذا لم يبق في بيت المال شيء أو أنفقتم الحوائض الذهب ونحوها من الزينة، وساو يتم العامة في الملابس سوى آلات الحرب، ولم يبق للجندي إلا فرسه التي يركبها، ساغ أخذ شيء من أموال الناس في دفع الأعداء. إلا أنه إذا دهم العدو، وجب على الناس كافة دفعه بأموالهم وأنفسهم، وانفضوا. فوجد الأمير سيف الدين قطز سبيلاً إلى القول، وأخذ ينكر على الملك المنصور وقال: لا بد من سلطان ماهر قاهر يقاتل هذا العدو، والملك المنصور صبي صغير لا يعرف تدبير المملكة. وكانت قد كثرت مفاسد الملك المنصور على بن المعز أييك، واستهتر في اللعب وتحكمت أمه فاضطربت الأمور. وطمع الأمير

(١) المقرئزي، السلوك، ٤١٩/١.

(٢) بدر الدين حسن السنجاري قاضي القضاة أبو المحاسن يوسف بن الحسن الزرادي، كان صدرأ معظماً جواداً ممدحاً، ولي قضاء بعلبك وغيرها، ثم ولاه الملك الصالح نجم الدين أيوب مصر، والوجه القبلي، ثم ولي قضاء القضاة بعد شرف الدين ابن عين الدولة، وباشر الوزارة، وكان له من الخيل والماليك ما ليس لوزير مثله، ولم يزل في الارتفاع إلى أوائل الدولة الظاهرية، فعزل ولزم بيته. اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، ٢٠٢/٢.

(٣) ستأتي - إن شاء الله - ترجمة مفصلة عنه.

يوسف الدين قطز في أخذ السلطنة لنفسه، وانتظر خروج الأمراء للصيد: فلما خرج الأمير علم الدين سنجر الغتمي، والأمير سيف الدين بهادر، وغيره من المعزية لرمي البندق - وكان يوم السبت رابع عشري ذي القعدة - قبض قطز على المنصور وعلى أخيه قاقان وعلى أمهما، واعتقلهم في برج بقلعة الجبل. فكانت مدة المنصور سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام. وجلس على سرير السلطنة بقلعة الجبل يوم السبت، الرابع والعشرين من ذي القعدة، سنة سبع وخمسين وستمائة (١).

وشرع قطز في ممارسة مهام عمله وكان عليه سرعة مجابهة الخطر المغولي، وكان أول خطوة في هذا الاتجاه أنه أجاب الملك الناصر يوسف صاحب الشام أنه سيقدم له العون والنجدة ولا يقعد عن مساعدته، حيث عاد ابن العديم يحمل الرسالة بذلك المعني، وبصحبتة برهان الدين الخضر حاملا جواب الملك المظفر قطز إلى الملك الناصر، إذ أخبره فيها بأنه يقبل كل عروضه عن طيب خاطر، ولا يقتصر على ذلك بل يعتبر الناصر أيضا - بصفته سليل صلاح الدين - ملكا على جميع الممالك التي خضعت لسلطان الأيوبيين ومنها مصر، ثم يضيف بأنه - أي قطز - ليس إلا أحد قادته على ضفاف النيل، وأنه يتعهد أن يعطيه السلطنة العليا إذا أراد القدوم إلى القاهرة، كما يعرض عليه أن يرسل له جيشه إلى دمشق ليجنبه عناء القدوم بنفسه إلى القاهرة، إذا كان يرتاب في صدق نواياه (٢).

ثم إن المظفر قطز قد أقال عشرة المماليك البحرية الذين كانوا قد فروا إلى الشام ودخلوا في خدمة الملك الناصر صاحب الشام ثم انفضوا من حوله بعد محاولته التحالف مع التتار ضد المسلمين، حيث توجه الظاهر بيبرس إلى غزة، ومن هناك أرسل يطلب الأمان من سيف الدين

(١) المقرئزي، السلوك، ١ / ٤١٧، ابن تغر بردي، النجوم الزاهرة، ٧ / ٥٥.

(٢) المقرئزي، السلوك، ١ / ٤١٨، أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ٣ / ٢٠٨.

قطر، الذي حلف له... ووعده الوعود الجميلة،... ووصل مصر فعلاً، فأنزله الملك المظفر سيف الدين قطز بدار الوزارة وأحسن معاملته، ثم أقطعه قلوب ومناطق الريف المجاورة لها^(١).

وتتابعت الأحداث حيث بدأ هولاء يعد العدة للهجوم على بيت المقدس وغزو البلاد المصرية، ولم يعد قانعا بما استولي عليه في الشام، فأرسل رسله إلى مصر بكتاب كله تهديد ووعيد وإنذار بالويل والثبور وعظائم الأمور لسلطان مصر المملوكي إن هو لم يخضع له ويعترف بسلطان المغول، جاء فيها:.... باسمك اللهم باسط الأرض، ورافع السماء. يعلم الملك المظفر قطز الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم، يتنعمون بإنعامه، ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك. يعلم الملك المظفر قطز، وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال، أنا نحن جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حل به غضبه، فلكم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر فاتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمركم، قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ، فنحن ما نرحم من بكي، ولا نرق لمن شكى، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب وعلينا بالطلب، فأى أرض تأويكم، وأي طريق تنجيكم، وأي بلاد تحميكم؟ فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يسمع، فإنكم أكلتم الحرام، ولا تعفون عند كلام، وخنتم العهود والأيمان، وفشا فيكم العقوق والعصيان، فأبشروا بالمذلة والهوان، فالיום تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغي الحق وبما كنتم تفسقون وسيعلم

(١) المقرئزي، السلوك، ٤١٩/١ - ٤٢٠.

الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، فمن طلب حربنا ندم، ومن قصد أماننا سلم، فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم، فلکم ما لنا وعليکم ما علينا، وإن خالفتم هلكتم، فلا تهلكوا نفوسکم بأيديکم، فقد حذر من أندر، وقد ثبت عندکم أن نحن الکفرة، وقد ثبت عندنا أنکم الفجرة، وقد سلطنا علیکم من له الأمور المقدره والأحكام المدبره، فكثيرکم عندنا قليل، وعزيزکم عندنا ذليل، وبغير الأهنة ما لملوکم عندنا سبيل. فلا تطيلوا الخطاب، وأسرعوا برد الجواب، قبل أن تضرم الحرب نارها، وترمي نحوکم شرارها، فلا تجدون منا جاهًا ولا عزًا، ولا كافيًا ولا حرزًا، وتدهون منا بأعظم داهية، وتصبح بلادکم منکم خالية، فقد أنصفناکم إذ راسلناکم، وأيقظناکم إذ حذرناکم، فما بقي لنا مقصد سواکم. والسلام علينا وعليکم، وعلي من أطاع الهدي، وخشي عواقب الردى، وأطاع الملك الأعلى.

ألا قل لمصرها هلاوون^(١) قد أتى ::: بحد سيوف تنتضي وبواتر
يصير أعز القوم منها أذلة ::: ويلحق أطفالا لهم بالأكابر^(٢)

أخذ السلطان يجمع الرجال والأموال والسلاح ويستعد لصد المغول وأدرك أن مهمته على جانب كبير من الخطورة، فالشعب الذي سيواجه به المغول قد استولت عليه الرهبة واستبد به الخوف من هول ما سمعه عن فظائع المغول ووحشيتهم وسفكهم للدماء وتخريبهم للديار فضعفت روحه المعنوية عن الجرأة على الوقوف في مهبط هذا الإعصار المهلك.

ولم يوهن من عزم قطز أو يضعف من تصميمه على الخروج لمنازلة المغول ما سمعه من أقوال المرجفين ولم يأبه بما احتج به الداعون إلى الانتظار داخل الحدود المصرية حتى يدخل إليها المغول ونادى بالنفير العام للجهاد في سبيل الله ودرّب المتطوعين

(١) صيغة لاسم هولاءكو تزد كثيرًا في كتب المؤرخين المعاصرين.

(٢) المقرئزي، السلوك، ١ / ٤٢٧ - ٤٢٨، القلقشندی، صبح الأعشى، ٦٣ / ٨ - ٦٤.

على فنون القتال في وقت قصير جدا ولم يكد ينتهي من مهمته حتى اقترب المغول بقيادة كتبوغا من حدود مصر.

فلما تسلم السلطان المظفر قطز الرسالة (الإذار) جمع الأمراء، وانفقوا على قتل الرسل والمسير إلى الصالحية: فقبض على الرسل واعتقلوا وشرع في تحليف من تخيره من الأمراء، وأمر بالمسير، والأمراء غير راضين بالخروج كراهة في لقاء التتر.

يقول المقرئزي:

فلما كان يوم الاثنين خامس عشر شعبان: خرج الملك المظفر بجميع عسكر مصر، ومن أنضم إليه من عساكر الشام ومن العرب والترکمان وغيرهم، من قلعة الجبل يريد الصالحية.

وفيه أحضر قطز رسل التتر، وكانوا أربعة، فوسط واحداً بسوق الخيل تحت قلعة الجبل، ووسط آخر بظاهر باب زويلة، ووسط الثالث ظاهر باب النصر، ووسط الرابع بالريدانية. وعلقت رءوسهم على باب زويلة، وهذه الرءوس أول رءوس علقت على باب زويلة من التتار. وأبقى الملك المظفر على صبي من الرسل، وجعله من جملة ممالئكه.

ونودي في القاهرة ومصر، وسائر إقليم مصر، بالخروج إلى الجهاد في سبيل الله، ونصرة لدين رسول الله ﷺ.

وتقدم الملك المظفر لسائر الولاة بإزعاج الأجناد في الخروج للسفر، ومن وجد منهم قد اختفى يضرب بالمقارع. وسار حتى نزل بالصالحية وتكامل عنده العسكر، فطلب الأمراء وتكلم معهم في الرحيل، فأبوا كلهم عليه وامتنعوا من الرحيل. فقال لهم: يا أمراء المسلمين لكم زمان تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحني، ومن لم يختار ذلك يرجع إلى بيته. فإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين. فتكلم الأمراء الذين تخيرهم وحلفهم في موافقته على المسير، فلم يسع البقية إلا الموافقة، وانفض الجمع.

فلما كان في الليل ركب السلطان، وحرك كوساته وقال: أنا ألقى التتار بنفسي، فلما رأى الأمراء مسير السلطان ساروا على كره. وأمر الملك قطز الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري أن يتقدم في عسكر ليعرف أخبار التتار، فسار بيبرس إلى غزة وبها جموع التتار، فرحلوا عند نزوله، وملك هو غزة.

ثم نزل السلطان بالعساكر إلى غزة وأقام بها يوماً، ثم رحل من طريق الساحل على مدينة عكا وبها يومئذ الفرنج، فخرجوا إليه بتقادم وأرادوا أن يسيروا معه نجدة فشكرهم وأخلع عليهم، واستحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه، وأقسم لهم أنه متى تبعه منهم فارس أو راجل يريد أذى عسكر المسلمين رجع وقاتلهم قبل أن يلقي التتار.

وأمر الملك المظفر بالأمراء فجمعوا وحضهم على قتال التتار، وذكرهم بما وقع بأهل الأقاليم من القتل والسبي والحريق، وخوفهم وقوع مثل ذلك، وحثهم على استنقاذ الشام من التتار ونصرة الإسلام والمسلمين، وحذرهم عقوبة الله. فضجوا بالبكاء، وتحالفوا على الاجتهاد في قتال التتار ودفعتهم عن البلاد. فأمر السلطان حينئذ أن يسير الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري بقطعة من العسكر، فسار حتى لقي طليعة التتار. فكتب إلى السلطان يعلمه بذلك. وأخذ في مناوشتهم، فتارة يقدم وتارة يحجم، إلى أن وافاه السلطان على عين جالوت وكان كتبغا وبيدرا نائباً هولاكو، لما بلغهما مسير العساكر المصرية، جمعا من تفرق من التتار في بلاد الشام، وسارا يريدان محاربة المسلمين، فالتقت طليعة عسكر المسلمين بطليعة التتار وكسرتها^(١).

اتجه السلطان قطز على رأس جيش كثير العدد إلى بلاد الشام في أوائل رمضان سنة ٦٥٨ هـ وكانت الخطة التي رسمها هي أن يقابل المغول في أرض الشام وألا ينتظر قدومهم إلى مصر وكان يهدف من وراء ذلك إلى أمرين:

(١) المقرئزي، السلوك، ١/ ٤٢٧.

الأول: انتهز فرصة البدء بالقتال التي كان المغول يحرسون على انتهازها أولاً ليضعفوا الروح المعنوية في نفوس أعدائهم.

الثاني: لقاء المغول خارج أرض مصر حتى لا تكون ميدانا للحروب وعرضة للتدمير والتخريب.

وقد أرسل السلطان أمام قواته طليعة من الفرسان بقيادة ركن الدين بيبرس وعند بلدة الصالحية^(١) انضمت الكتائب الشامية التي كانت قد جاءت إلى مصر فارة من وجه المغول إلى الجيوش المصرية.

وصلت طلائع الجيوش المصرية إلى غزة وأرغمت المغول على التخلي عنها ودخلها الأمير بيبرس على رأس فرسانه، ولم يكن المغول يتوقعون أن يصل المصريون إليهم بهذه السرعة فلما رأوا الجحافل الإسلامية قد ملأت السهول والأودية اضطروا إلى إخلاء جنوب الشام وأشار بعض ضباطهم على قائدهم كتبغا نوبين بطلب النجدة من السلطان هو لآكو ولكنه اغتر بقوته وخدع بانتصاراته السابقة ولم يعمل بمشورتهم.

سارت الجيوش الإسلامية من غزة متجهة إلى الشمال ومحاذية ساحل البحر الأبيض ومرت بيافا وقيسارية إلى جبل الكرمل جنوب حيفا وعند قرية (عين جالوت) الواقعة بين بيسان ونابلس دارت المعركة الفاصلة بين الجيش الإسلامي وجيش المغول في ٢٥ من رمضان سنة ٦٥٨ هـ.

بدأت المعركة بهجوم عنيف من المغول فتراجعت ميسرة الجيش الإسلامي وإذا بنداء يدوي في ساحة المعركة (وا إسلاماه وا إسلاماه وا إسلاماه) فاتجهت الأنظار إلى مصدر الصوت فإذا المنادي هو السلطان نفسه فالتهب حماس الجيش وعادت الميسرة إلى مكانها الأول وحمل الجيش الإسلامي حملة صادقة على جيش المغول حتى

(١) الصالحية: إحدى قرى مركز فاقوس بمحافظة الشرقية بالوجه البحري بمصر أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب عام ٦٤٤ هـ.

هزمهم هزيمة ساحقة ومزقهم شرّ ممزق وخرّ قائدهم كتبغا نوبين صريعاً في الميدان واعتصمت طائفة منهم بالتل المجاور لمكان الموقعة فأحذقت بهم العساكر المسلمة وصابروهم على القتال حتى قتلوا معظمهم وفرّ الباقيون لا يلوون على شيء وقتل الأهالي الموتورون من المغول من وقع في أيديهم من هؤلاء الفارين^(١).

وبعد انتهاء الموقعة اتجه السلطان قطز إلى دمشق فقبل بحفاوة بالغة من أهلها لأنه صدّ هذه الموجة العاتية التي اجتاحت بلادهم وأنزلت بهم صنوف البلايا وقد أمر السلطان بشنق الذين تعاونوا مع المغول وعيّن حاكماً على دمشق من قبله^(٢) يقول العيني:

ولما فرغ السلطان، وصفاً باله، واستقام حاله، عاد إلى دمشق، والأسرى تساق قدامه في الكبول، وقد حمل ما نهب لهم من القسيّ والسناجق والطبول، وكان دخوله دمشق يوم الجمعة الثاني والعشرين من رجب من هذه السنة، فدخلها ونزل في القلعة مؤيداً، منصوراً، وكان أعظم الأيام قدراً، وأطرها عند الأنام نشراً، وأظهرها في وجه الزمان بشراً، بهذه النصر العظيمة، والنظرة الوسيمة، والكسرة التي لم يرى مثلها في الأزمان القديمة، فإن جيش التتار لم يجز هذه الديار بمثل هذا الإكثار، ولا قصدها قبل هذه المدة في بعض هذه العدة^(٣).

وأمر السلطان المظفر قطز بعمارة ما خربه التتر من قلاع الشام: وهي قلعة دمشق، وقلعة الضلت، وقلعة عجلون، وقلعة صرخد، وقلعة بصرى وقلعة شيزر، وقلعة الصيبية، وقلعة شميش وقلعة حمص. فعمرت كلها ونظفت خنادقها، ووسعت أبراجها وشحنت بالعدد، وجرّد إليها المماليك والأجناد، وخرنت بها الغلات والأزواد وحملت كثيرة

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٧٩، ٨٠.

(٢) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ٢٠٦ - ٢٠٧.

(٣) بدر الدين العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ١٨٢/١.

إلى دمشق، وفرقت في البلاد لتصير تقاوي الفلاحين. ورتب السلطان بدمشق بعدل، وبنى مشهداً في عين جالوت عرف بمشهد النصر.

أما بيبرس فإنه تعقب المنهزمين من المغول حتى كاد أن يلحق بهم على مقربة من مدينة حلب ولكنهم أطلقوا من كان في أيديهم من الأسرى وتركوا أولادهم وأسرعوا خفافاً حتى لا يلحق بهم فتخطف الناس أولادهم ودانت حلب بالطاعة لسلطان مصر.

وبالرغم من أن الخطر المغولي قد وحد صفوف المسلمين لمواجهته حيناً من الدهر، إلا أن زوال هذا الخطر قد أعاد الخلافات إلى صفوف المسلمين إلى سابق عهدها، وعلي ما يبدو أن المماليك البحرية لم يغفروا للمظفر قطز قتله أستأذهم أقطاي فبدأوا - بعد زوال خطر المغول - يفكرون جدياً في الأخذ بالثأر من المظفر قطز يقول ابن خلدون: " إن البحرية من حين مقتل أميرهم أقطاي الجامدار يتحينون لأخذ ثاره وكان قطز هو الذي تولى قتله فكان مستريياً بهم ولما سار إلى التتر ذهل كل منهم عن شأنه وجاء البحرية من القفر هاربين من المغيث صاحب الكرك فوثقوا لأنفسهم من السلطان قطز أحوج ما كان إلى أمثالهم من المدافعة عن الإسلام وأهله نأمنهم واشتمل عليهم وشهدوا معه واقعة التتر على عين جالوت وأبلغوا فيها والمقدمون فيهم يومئذ بيبرس البندقداري وأنز الأصبهاني وبلبان الرشيدى وبكتون الجوكنداري وبندوغار التركي فلما انهزم التتر من الشام واستولوا عليه وحسر ذلك المد وأفرج عن الخائفين الروع عاد هؤلاء البحرية إلى ديدنهم من التترصد لثأر أقطاي... (١).

وكان بيبرس البندقداري قد أبدي شجاعة نادرة في قتال التتار في عين جالوت، لاتقل عن شجاعة السلطان المظفر قطز نفسه، وكان يطمع في نيابة حلب، وطلبها بالفعل من المظفر قطز، الذي وعده بها، ولكنه عاد وحنث بوعده ورضن عليه بها يقول الذهبي: " ودخل

(١) تاريخ ابن خلدون، ٥ / ٣٨٠.

السلطان الملك المظفر القلعة مؤيداً منصوراً، وأحبّه الخلق غاية المحبة. وعبر قبله البندقداري على دمشق، وسار وراء التتر إلى بلاد حلب، وطردهم عن البلاد. ووعد السطان بحلب، ثم رجع عن ذلك فتأثر ركن الدين البندقداري من ذلك. وكان مبدأ الوحشة^(١).

هذا الأمر جعل بيبرس يتنكر له، واتفق مع جماعة من الأمراء على قتله وظل يتربص الفرصة لتنفيذ غرضه، ثم وافته الفرصة أثناء عودة السلطان إلى مصر وخروجه للصيد بالقرب من الصالحية.

وبالرغم من أن قطز قد شعر بما يحاك ضده إلا أن سيف القدر كان أسرع من أن يأخذ حذره، يقول الذهبي: ونقل الصاحب عز الدين ابن شداد أنّ المظفر لما ملك دمشق عزّم على التّوجّه إلى حلب لينظف آثار التتار من البلاد، فوشى إليه واش أنّ ركن الدين البندقداري قد تنكّر له وتغيّر عليه: وأنه عاملٌ عليك. فصرف وجهه عن قصده، وعزّم على التّوجّه إلى مصر وقد أضمر الشرّ للبندقداري. وأسرّ ذلك إلى بعض خواصه، فاطّلع على ذلك البندقداري... ثم ساروا والحفود ظاهرة في العيون والخدود، وكلّ منهما متحرس من الآخر. إلى أن أجمع ركن الدين البندقداري على قتل المظفر...^(٢).

قال أبو المحاسن:

ثم إن الملك المظفر قطز رتب أمور الشام واستتاب بدمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبي الكبير. ثم خرج المظفر من دمشق عائداً إلى مصر إلى أن وصل إلى القصير، وبقي بينه وبين الصالحية مرحلة واحدة، ورحلت العساكر إلى جهة الصالحية وضرب الدهليز السلطاني بها وبقي المظفر مع بعض خواصه وأمرائه، وكان جماعة قد اتفقوا مع الأمير بيبرس البندقداري على قتل الملك المظفر: منهم الأمير سيف الدين أنص من مماليك نجم

(١) الذهبي، تاريخ الإسلام، ٤٧٠/١.

(٢) الذهبي، تاريخ الإسلام، ٤٧١/١ - ٤٧٣.

الدين الرومي الصالحي، وعلم الدين سنجر، وسيف الدين بلبان، الهاروني وغيرهم، كل ذلك لكمين كان في نفس بيبرس، لأجل نيابة حلب. واتفق عند القصير بعد توجه العساكر إلى الصالحية أن ثارت أرنب فساق الملك المظفر قطز عليها، وساق هؤلاء المتفقون على قتله معه، فلما أبعدوا ولم يبق معه غيرهم، تقدم إليه الأمير بيبرس البندقداري وشفع عنده شفاعاة في إنسان فأجابه، فأهوى بيبرس ليقبل يده فقبض عليها، وحمل أنص عليه، وقد أشغل بيبرس يده، وضربه بالسيف، ثم حمل الباكون عليه ورموه عن فرسه، ورشقوه بالنشاب فقتلوه، ثم حملوا على العسكر وهم شاهرون سيوفهم حتى وصلوا إلى الدهليز السلطاني بالصالحية، فنزلوا ودخلوا والأتابك على باب الدهليز فأخبروه بما فعلوا، فقال: من قتله منكم، فقال بيبرس: أنا، فقال: يا خوند، اجلس على مرتبة السلطان.

أما قطز فإنه دفن في موضع قتله - رحمه الله تعالى - وكثر أسف الناس وحزنهم عليه. قال الحافظ أبو عبد الله شمس الدين محمد الذهبي في تاريخه - رحمه الله تعالى - بعد ما سماه ونعته قال: وكان المظفر أكبر ممالك الملك المعز أبيك التركماني، وكان بطلاً شجاعاً مقداماً حازماً حسن التدبير، يرجع إلى دين وإسلام وخير، وله اليد البيضاء في جهاد التتار، فعوض الله شبابه بالجنة ورضي عنه (١).

لقد قتل السلطان وهو عائد بنصره الكبير، وتم تتويج قاتله خلفاً له في مكان الاغتيال، وعلى ما يبدو أن سيف الدين قطز قد كانت له مهمة محددة في التاريخ، فما أن أنجزها حتى توارى عن الأعين والأحداث، بعد أن أتم دوره على أكمل وجه، فرحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، وتقبله الله في الشهداء.

* * *

(١) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - (ج ٢ / ص ٢٧٣).